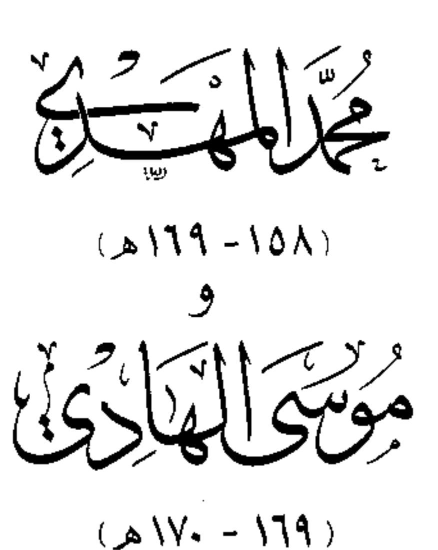
سلسلة الخلفاء



محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

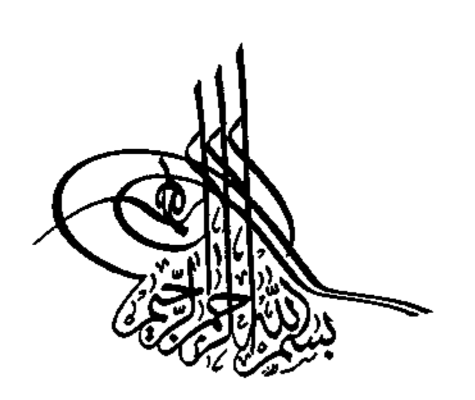
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

محمد المهدي

و

موسى الهادي


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، *أما بعد* :

فإن الأعداء إنما يُوجّهون سهامهم المسمومة بتسديدٍ دقيقٍ ورميٍ كثيفٍ على الخلفاء الذين يشدّدون وطأتهم على المتلوّنين وأمثالهم حتى لا يستطيعون الظهور ولا يتمكّنون من التحرّك وإثارة العامة على الخلافة، وعلى الخلفاء الذين يقطعون الطريق على الأعداء بإصلاحاتهم واتباع النهج الإسلامي بشكلٍ سليمٍ فينتشر الأمن، ويسود العدل، وتعمّ الأخوة، ويُقبل غير المسلمين نحو دين الله، وينفر أهل الذمة مما كانوا يتوهّمون، ومن أضاليل أحبارهم الذين ينشرون أباطيلهم سعياً وراء مصالحهم. وكانت السهام المسمومة هي إشاعات وأكاذيب، وافتراءات وأباطيل، تُثار لتقضّ مضاجع المجتمع الإسلاميّ آنياً ولتُثير الشكوك حول الخليفة ومن يُمثّل، وحول المنهج الذي يتّبعه، كما تُدوّن هذه الافتراءات لتكون سلاح المستقبل يستعمله الأعداء كلما أرادوا إعداد حملةٍ فكريةٍ على المسلمين أو

إثارة زوبعةٍ على الماضي يُشوّهون معالم البناء والسمو بالإنسان، ويسوّدون صفحات التاريخ الناصعة البياض.

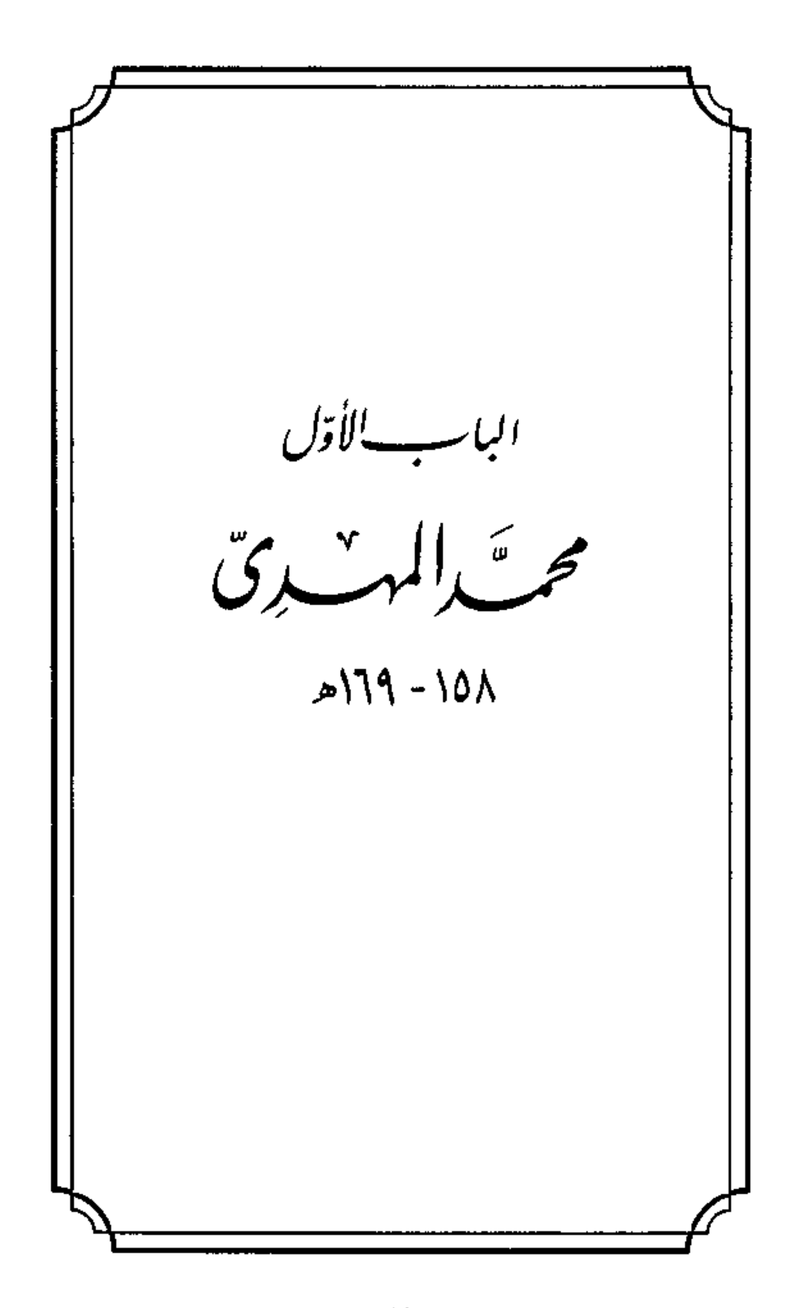
أما الخليفة محمد المهديّ فلم يكن شديد الوطأة على المتلوّنين، إذ صرف جهده إلى الزنادقة؛ فوجّه لهم الضربات، وكال لهم الصفعات، وترك المتلوّنين وما يُظهرون، وأوكل أمرهم إلى الله، وفي الوقت نفسه لم يكن هو ذلك العملاق الذي يخشاه الأعداء من الفئات كافّةً يخافون بأسه، ويرهبون دعوته، ويخشون فصم عراهم، ويحذرون استقرار وضع أسرته، لذا كانت السهام الموجّهة إليه ذات سمٍّ قليلٍ، موجّهةً من بعيدٍ وبعددٍ ضئيلٍ، لا يبالي مسدِّدوها أصابت كبد الهدف أم وقعت على أطرافه أم طاشت نائيةً عنه. ولهذا كله لم يلق المهديّ الكثير من الاهتمام وبالغ الانتباه حتى كأنه عاش وراء ستارٍ شفافٍ يُرى مكانه، ويُعرف مقامه، ولا تُدْرَكُ أوصافه، ولا تُعلم أعماله غير أبيه المنصور وغير ولده الرشيد.

فنرجو من الله التوفيق لتقديم صورةٍ صادقةٍ عن حياة محمد المهديّ الخليفة العباسي الثالث، وعن حياة ولده موسى الهادي الخليفة العباسي الرابع.

وما نبتغي سوى الحقيقة، كما نرجو أن يكون في عملنا الإخلاص والصدق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الرياض: غرة شهر رمضان المبارك عام ١٤٢٠هـ

محمود شاكر



الباب الأول

محمد المهدي

١٥٨ - ١٦٩هـ



الفصل الأول

محمّد المهدي قبل الخلافة

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس عمّ رسول الله ﷺ.

ولد محمد المهديّ في الحُميمة من أعمال جنوبي الشام سنة ستٍ وعشرين ومائة، أي بعد وفاة جدّه محمد بن علي بقليلٍ. وأُمّه أم موسى بنت منصور الحميرية.

نشأ وهو يسمع دون أن يعقل: القبض على عمّه إبراهيم بن محمد، وحمله إلى حرّان قاعدة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُميّة. ويسمع عن الدعوة ولم يدرِ شيئاً، وأخيراً لم يجد نفسه إلا ضمن قافلةٍ فيها أبوه، وأعمامه، وعمومة أبيه، وأبناء عمومته تنطلق نحو الكوفة حسبما يسمع، ترنّ في آذانه كلمات الثأر، ويسمع نشيج البكاء، ولا يدرك أبعاد الموضوع. وحطّ الرحل بالكوفة.

وتمرّ الأيام بطيئةً تجرّ ذيولها جرًّاً تجلّلها السرّية ويُغطّيها الكتمان، لقاءات محدودة الأفراد، كأن على الأفواه أقفالاً، وأحاديث قليلة العبارات يكتنف الغموض أكثرها تُسحب الكلمات من الأفواه سحباً، وتُشارك العيون والإشارات في بعضها، وربما يكون لها النصيب الأوفى من العبارات، ولا يدرك محمد الناشئ الكثير من معانيها ولا يعرف شيئاً من أبعادها ومراميها.

وتتغيّر الأمور فجأةً وتنقلب رأساً على عقب فالصخب يخلف السكون، والضجيج يعقب الصمت، والحركة تحلّ محلّ الهدوء، والوضوح يستعمل مكان الغموض، والتنبّه يزيل الشرود، ولا يدري محمد المهديّ وهو في السادسة من عمره ماذا جرى.

تبدأ الأحاديث كأنها جديدة تدور على البيعة، وأصبح عمّه أبو العباس يُنادى بـ«يا أمير المؤمنين»، وغدا الكلام عن شجاعة عبد الله بن عليّ، وإقدام عبد الصمد بن عليّ، ومطاردة مروان بن محمد، وبعض مجريات الأحداث.

وانتقل الكلام إلى قتل مروان بن محمد، واستتباب الأمن والرجوع بالذكريات إلى بعض وقائع التاريخ، وأحداث الأيام، وبعض ما قيل من شعرٍ في

العهد الذي جُلّل بغطاءٍ من التاريخ، وما في ذلك الشعر من مديحٍ وهجاءٍ، وفخرٍ واعتزازٍ، وذكر حروبٍ وأيامٍ، وأصبح محمد يريد أن يستمع ويسأل فلم يعد هناك أسرار، وغدا يريد أن يعرف ويتعلّم فالتاريخ دروس وعبر، وأيام مجد، وأحداث عهد، ويُحاول أن يُكرّر ما مرّ على مسامعه، ويُحدّث نفسه ويُسائلها.

في عهد عمّه أبي العباس:

تولّى أبو العباس عبد الله بن محمد خلافة المسلمين وغدا خليفةً شرعياً بعد مقتل مروان بن محمد، ولاحظ محمد بن المنصور أن أسلوب الحياة قد تغيّر في الكوفة، إذ أصبح السهر يطول في بيت الخليفة، ويُشارك والد محمد في هذه الجلسات بل يُعدّ عنصراً أساسياً فيها، إذ هو أخو الخليفة الأكبر، وقد يتبع محمد والده فيلهو أمام الدار مع أبناء عمّه، ومع أبناء المجتمعين في جلسة السمر، وربما يجلس في زاوية البيت فيستمع إلى ما يدور من حديثٍ، ويحاول التقاط بعض أطراف الكلام أو بعض جوانب الأحداث، فيصغي بانتباهٍ، ويظهر عليه الوعي لما يجول من موضوعاتٍ في المجلس، وهذا ما يسرّ والده فلا يمنعه من الحضور في المرات القادمة، وفي الوقت نفسه فإن

الولد يشعر بالسعادة إذ يريد أن تظهر شخصيته، ويُرضي غروره، وهو لا يزال في مقتبل العمر.

ثم أصبحت الأحاديث تدور عن الحركات التي ظهرت بالشام «حركة أبي الورد» و«حركة حبيب بن مرة» و«حركة دمشق» و«حركة الجزيرة الفراتية»، وأصبح محمد يسمع أسماءً جديدةً ويتفاعل، ويصغي بانتباهٍ شديدٍ إلى شرح أحدهم لمعركةٍ دارت على تلك الساحة فيتفاعل معه محمد بشدةٍ حتى كأنه يريد أن يستوعب الحادثة ويأخذ منها درساً، وهذا ما كان يسرّ الحضور وخاصةً والده، وإن كان هذا يهمّ الجميع إذ أغلبهم من ذوي رحمه.

ويتناقش الحضور في أسباب هذه الحركات التي انطلقت في أوقاتٍ متقاربةٍ، ويكادون يتفقون على أن الإساءات التي قام بها جند عبد الله بن عليّ في الشام والمخالفات التي وقعت منهم قد أوغرت صدور السكان على القادمين الجدد، وهم يظنّون أنهم سيكونون أكثر رحمةً من سابقيهم، وأكثر رأفةً ممن نقموا عليهم. ويكون التساؤل لماذا أقدم هؤلاء الجند على مثل هذه الأعمال وهم من بلادٍ نائيةٍ لم يسبق أن أصاب أهلها من الراحلين أذىً ولا لحق بهم ضيم، فلماذا هذا؟

وظهر للجميع أن هذه الأعمال إنما هي أحقاد على المسلمين وليس على الأمويين، ولما رأوا كفّة العباسيين قد رجحت أرادوا أن يُثيروا عليهم النقمة قبل أن يشتدّ ساعدهم فقام هؤلاء الجند بهذه الأعمال، وهم ليسوا من المسلمين وإن أظهروا ذلك ـ والله أعلم ـ وكراهيتهم للعباسيين ليست بأقلّ من كراهيتهم للأمويين، ولكن مصلحتهم وما يخططون له اقتضى أن يعملوا إلى جانب العباسيين مرحلياً.

وتتتابع التساؤلات، لماذا لم يأخذ عبد الله بن عليّ على أيديهم؟ فكانت الإجابات إنه لا يمكن أن يُحاسبهم أثناء القتال حرصاً على معنوية المقاتلين، وعلى وحدة الصف، وعلى تماسك الجند، ولكن عندما وقف القتال وانتهى الموضوع حاسبهم وقتل عدداً منهم، وهذا ما أوغر صدور أتباعهم عليه[1]، فلم يَصْدُقوا معه في القتال، وعاد فأعمل بهم السيف.

وكان تساؤل كيف لم نتنبه إليهم؟ فكانت الإجابة:

---

(١) سجّل من دوّن التاريخ أن القتل كان عندما جاء أبو مسلم الخراساني لقتال عبد الله بن عليّ بأمرٍ من الخليفة أبي جعفر المنصور وذلك لإخفاء ما تحمله صدور أولئك الجند من أحقادٍ على المسلمين.

إنهم يظهرون الإسلام، ولنا الظاهر، والله وحده يتولّى السرائر، وأبدوا لنا الطاعة، وأظهروا الشجاعة، وقاتلوا صادقين، فكيف نعرفهم أو نطلع على ما تُخفيه سرائرهم؟ وقال أحدهم: وقد تبعهم من قبلُ رجال كرام، أصحاب عقلٍ ودينٍ، فأُجيب: من سبق أن تبعهم إنما تبعهم عاطفةً حيث أبدوا الحب لآل البيت، وأظهروا العمل لهم، والصدق في دعوتهم، ولم يدرِ العقلاء وأصحاب الدين ممن وصفت نوايا الآخرين كما لم ندرِ، حيث لم ننتبه إلى خذلانهم، وتخلّيهم عمن يدعونهم للبيعة قبل أن يقع النزال بل قبل أن يتمّ اللقاء، وقد تكرّر ذلك، فهم يُخفون غير الذي يُظهرون.

ولكثرة التساؤلات فقد رسخت في ذهن محمد المهديّ أن في المجتمع الذي يعيش فيه يضمّ عناصر تُبطن غير ما تُظهر، وتعمل على هدم المجتمع الإسلامي، فهذه الفئة تُعادي الإسلام والمسلمين مع أنها تُظهر الإسلام وتُبدي عاطفةً نحو بيت آل رسول الله ﷺ، عاطفة غير صادقةٍ تخدع البسطاء وأصحاب العاطفة فيسيرون وراء أولئك، ويُصدّقونهم بل وغدوا مع الزمن يتأثّرون بهم، ويُردّدون ما يُملى عليهم من قبلهم.

وبعد مدةٍ شُغل أبو جعفر المنصور والد محمد المهدي بكثيرٍ من أمور الدولة إذ هو أحد أعمدتها، فقد يُبعث قائداً إذ سار إلى واسط، وقد يُرسل مصلحاً حيث بُعث إلى خراسان، وقد يُعيّن والياً إذ أُعطي ولاية أرمينيا وأذربيجان والجزيرة الفراتية، غير أنه ما ذهب إليها ولكنه أوكل أمر أرمينية إلى صالح بن صبيح، ثم إلى يزيد بن أسيد، وأوكل أمر أذربيجان إلى مجاشع بن يزيد ثم إلى محمد بن صول.

وكان أبو جعفر إذا عاد من مهمةٍ له تحدّث أمام بعض أهله عما لقي وما لاحظ، وينتبه إلى ابنه محمدٍ فإذا به منتبهٌ بإصغاءٍ ومُصغٍ بجوارحه كلها يُتابع حديث أبيه ويتفاعل معه، وهذا ما يجعل الوالد يتمنّى أن يؤول الأمر إلى ابنه محمدٍ في المستقبل.

في عهد أبيه:

توفّي أبو العباس عبد الله بن محمد بالأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ستٍّ وثلاثين ومائة، وكان أبو جعفر والد محمد المهدي يومها على الموسم، ووصل إليه الخبر وهو في طريق العودة.

كان أبو العباس قد عهد من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد ومن بعده لابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد. وما وصل أبو جعفر إلى الأنبار إلا وكان عيسى بن موسى قد أخذ له البيعة، وهيّأ الأمر، فلما وصل أبو جعفر قام بالأمر.

وما كاد أبو جعفر يرتاح من رحلته حتى بلغه أن عمّه عبد الله بن عليّ بالشام قد خلع الطاعة، وأخذ البيعة لنفسه. ورنّ الخبر بأسماع محمد المهديّ الذي كان قد تجاوز العاشرة فاستغرب الأمر، إذ بالأمس كانوا يثنون على عبد الله بن عليّ، ويُعطونه الصفات واليوم أصبح مخالفاً رافضاً البيعة، وهو عمّ الوالد، فأمر بني أمية لم يمض على زواله أكثر من أربع سنوات، وقد بدأ الخلاف بين بني العباس بل بين أفراد الأسرة بالذات بل وبين أقرب المقرّبين بعضهم إلى بعض، العمّ وابن أخيه، فالسعي للخلافة إذن هدف يُقاتل من أجله.

بعث أبو جعفر المنصور إلى عمّه عبد الله بن عليّ أبا مسلم الخراساني بعد تفكيرٍ وتخطيطٍ ودراسةٍ للموضوع، إذ أن أكثر جيش عبد الله بن عليّ من خراسان، فهم يدينون بالولاء لأبي مسلم الخراساني،

فلا بدّ من أن يتركوا قائدهم وينحازوا إلى سيّدهم إضافةً إلى ما تحمل صدورهم من غلٍّ لعبد الله بن عليّ لأنه أخذ على أيديهم لما قاموا به من تصرّفات تحمل في طيّاتها الحقد، وقتله أعداداً منهم، وهذا ما قد حدث، وانتصر أبو مسلم الخراساني، وترك عبد الله بن عليّ معسكره مع أخيه عبد الصمد بن عليّ، وسار عبد الله بن عليّ إلى البصرة وأقام عند أخيه سليمان بن عليّ، وحُمل عبد الصمد بن عليّ إلى الكوفة حيث استأمن له من أبي جعفر المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى، وقيل: بل أخوه إسماعيل بن عليّ.

لفت انتباه محمد المهديّ ملاحظتان: أولهما وجود عصبيةٍ خاصةٍ بخراسان لا وجود لمثلها في بقية الأمصار، ولهذا معنى، وثانيتهما معالجة أبيه لعصيان عمه عبد الله بن عليّ معالجةً سليمةً، فيها الكثير من الدهاء كما فيها الكثير من الحكمة، إذ لم يقتله ولو فعل ذلك لغضب إخوة عبد الله بن عليّ الكثيرين وكلهم أصحاب مكانةٍ وكفى أنهم أعمام الخليفة نفسه، وهم ولاة لعددٍ من الأمصار، ويكفي أن نذكر منهم: داود بن عليّ، وصالح بن عليّ، وإسماعيل بن عليّ، وسليمان بن عليّ و.... هذا إضافةً إلى أبنائهم الكثيرين، فإن قتل

عبد الله بن عليّ معناه تمزّق الأسرة وضياع ما حقّقوه، ولم يمضِ على ما وصلوا إليه سوى أربع سنواتٍ. وسكت المنصور عن عمّه سبع سنواتٍ وإن كان بين المدة والأخرى يُطالب عمه سليمان بأخيه إشارةً إلا أنه لم ينسَ فعله، وإن كان قد سكت فما ذلك إلا تقديراً لأعمامه وخاصةً سليمان الذي يُقيم عنده عبد الله بن عليّ.

وتكلم الأمراء العباسيون في حكمة أبي جعفر المنصور مع عميه عبد الله بن عليّ وعبد الصمد بن عليّ، ووصل الكلام إلى محمد المهديّ فسُرّ به، وغدا يُفكّر في تعليل كل موضوعٍ، ويحاول أن يتوصل إلى أبعاد القضية حسب سنه الصغيرة وعدم وجود التجربة، غير أنه أخذ درساً من هذا وعبرةً للمستقبل.

وما أن انتهى موضوع عبد الله بن عليّ حتى ظهر موضوع أبي مسلم الخراساني الذي انتصر على عبد الله بن عليّ، إذ رغب أبو مسلم الانطلاق نحو خراسان التي يعدّها قاعدته ومركز قوته ويعدّ أهلها جنده وأتباعه الذين يعتمد عليهم في كل محنةٍ، ويدرأ بهم عن نفسه كل طارئ يعترض سبيله، ويريد الخليفة أبو جعفر المنصور أن يحول دون ذلك، ويمنع من وصول أبي مسلم إلى

خراسان واتّخذ الحيل كافةً، وأبدى غير ما يخفي في نفسه من القضاء على أبي مسلم، وكانت تدور بين الأمراء العباسيين أهداف أبي مسلم وما يرمي إليه، وقد تتباين بعض وجهات النظر من خلال بعض المصالح، وكان محمد المهديّ بجانب رأي أبيه لما يسمع ولما يُبديه نتيجة القرب، وإن كان لا يعرف الأبعاد الحقيقية بعد، وإن كان قد دلّ على شيءٍ منها تمنّع أبي مسلم، ومخالفته لمطالب أمير المؤمنين.

ونجحت وسائل المنصور وحيله، وتمكّن من قتل أبي مسلم، ولا بدّ من توضيح أسباب القتل، وتعليل ما جعله يُقدم عليه، ووعى محمد ذلك بل وحفظ بعض عبارات أبيه مما كان يحمله على أبي مسلم، واستغرب تلك العصبية الخراسانية، وإن لم يُدرك أبعاد ذلك بعد.

ولما خرج سُنباذ وهو من المجوس، خرج يُطالب بدم أبي مسلم، بدأت تتوضّح عند محمد المهديّ بعض مرامي المتلوّنين. وقد وجّه المنصور قوةً لسُنباذ قضت عليه وعلى جماعته، إذ قُتل سُنباذ، وانتهى أمره.

وبعد مدةٍ خرجت الراوندية، ويقول أتباعها بتناسخ الأرواح، ويدعون لثأر أبي مسلم، وقد أشعلوا فتنةً، وتمكّن المنصور ـ بإذن الله ـ من إخماد نارها.

وقد فهم محمد المهديّ بعض مرامي المتلوّنين حيث كان قد بلغ السادسة عشرة من عمره، وأدرك أن الموضوع خطير إذ أن المتلوّنين وإن كانوا يُظهرون الإسلام، إلّا أنهم يخفون عقيدةً اختفت ويعملون لإحيائها، ويتخذون عاطفةً كاذبةً في حب آل بيت رسول الله ﷺ لكسب أعوانٍ لهم في سبيل الوصول إلى أهدافهم، وقد استطاعوا فعلاً كسب عناصر لهم من مناطق عدةٍ باسم العاطفة، وبقوا محافظين على عقيدتهم ولكن دخلتها مع الزمن شوائب دسّها المتلوّنون فثبتت مع الأيام ورسخت مع توالي الأعوام، فدخلت في العقيدة باسم المحبة والعاطفة، وأصبح من الصعب سحبها والتخلّي عنها إذ غدت مع الوراثة جزءاً من الإيمان، ومع ذلك فيجب ألا نعدم الحيلة في فصل ما دخل من الشوائب عن الأصل.

ولاية العهد:

كان أبو العباس قد عهد من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور، ومن بعده لابن أخيه عيسى بن موسى، غير أن أبا جعفر، قد نظر إلى ابن أخيه فوجد فيه قائداً ماهراً، ومُقاتلاً شجاعاً غير أن الخلافة لا تحتاج إلى شدّةٍ فقط ولا إلى شجاعةٍ وإقدامٍ فحسب، ولا إلى

مهارةٍ في فنّ القتال وقيادة الجيوش وكفى، بل لا بدّ من التروّي في الأمور ومعالجة القضايا بشكلٍ سليمٍ، ومحاولة التعرّف على مرامي الخصم، وأهداف الأعداء، ومشكلات المجتمع ودراسة الأمور لإيجاد الحلول الصحيحة، ونظر إلى ابنه محمد المهديّ فوجد فيه الهدوء، وإمعان النظر، والإصغاء إلى الأخبار، والعمل في تقليب الأمور، وعدم إعطاء القرار قبل دراسة الأمور من جميع الوجوه رغم صغره، لذا رأى أن يُقدّمه في ولاية العهد على ابن أخيه عيسى بن موسى، ولا شكّ فإن لعاطفة الأبوة دوراً في هذا الموضوع لا نستطيع أن ننكره، كما لا يمكن أن نتجاوزه.

اتّخذ أبو جعفر المنصور الوسائل كلها من إغراءٍ، وترغيبٍ، وترهيبٍ، وإقناعٍ، ووساطة الأقرباء، وإبداء المحبة، والحرص على وحدة الأسرة في سبيل تقديم ابنه محمد المهديّ على ابن أخيه عيسى بن موسى، غير أن عيسى لم يستجب إلى ذلك كله، وجرت بينهما مكاتبات كثيرة لم تُجْدِ نفعاً، ولكن المنصور لم يزل به حتى خلع عيسى نفسه بنفسه وبايع لمحمد بن المنصور، وكان مُكرهاً على ذلك، وقد تمّ ذلك سنة سبعٍ وأربعين

ومائة، وكان محمد المهديّ قد أتمّ الحادية والعشرين من العمر.

وعاد المنصور فجدد لابنه محمد المهدي البيعة من بعده سنة إحدى وخمسين ومائة.

التأهيل:

كان أبو جعفر قد أزمع على تقديم ولده محمد المهديّ في ولاية العهد على ابن أخيه عيسى بن موسى، ولذا لا بُدّ له من أن يُؤهّله لذلك ويُدرّبه حتى يستطيع أن يقوم بالمسؤولية التي ستُلقى على عاتقه، وهي الخلافة، وإنها لأمانة، ومحمد المهديّ لا يزال فتىً يافعاً.

وفي سنة إحدى وأربعين خلع الطاعة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل أبي جعفر على خراسان، فوجّه إليه ابنه محمد المهديّ بن المنصور وعمره ست عشرة سنةً، وأمره أن ينزل الريّ، فسار إليها المهديّ، ووجّه لحربه خازم بن خزيمة مقدمةً له، ثم شخص محمد المهديّ فنزل نيسابور. فانتصر خازم على عبد الجبار، وأخذه أسيراً ومعه ولده وأصحابه فحُملوا إلى المنصور، فأمر بضرب عنق عبد الجبار، وتسيير ولده إلى جزر «دهلك» في البحر الأحمر، مقابل سواحل أريتريا.

وكتب أبو جعفر المنصور لابنه محمد المهديّ أن يغزو طبرستان وأن ينزل الريّ، وأن يُوجّه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة إلى طبرستان. ثم وجّه أبو جعفر أيضاً عمر بن العلاء، وتمّ فتح طبرستان فكتب المهديّ بذلك إلى أبيه.

وبعدما خرج إبراهيم بن عبد الله بن حسن بالبصرة كتب أبو جعفر المنصور إلى ابنه محمد المهديّ أن يُوجّه خازم بن خزيمة في أربعة آلافٍ إلى الأهواز التي أيّدت إبراهيم وتبعته، فجاء خازم إلى الأهواز وتمكّن من دخولها، وذلك سنة خمسٍ وأربعين ومائة.

وبنى أبو جعفر المنصور في الجانب الشرقي من مدينة السلام حيّ الرصافة لابنه محمد المهدي سنة إحدى وخمسين ومائة، وعمل للرصافة سوراً، وخندقاً، وميداناً وبستاناً، وأجرى له الماء، فكان الماء يجري من نهر المهديّ إلى الرصافة.

وفاة المنصور:

انطلق أبو جعفر المنصور للحج سنة ثمانٍ وخمسين ومائة، فتوفّي عند بئر ميمون في طريق ذهابه قبل دخوله الحرم، وذلك مع طلوع فجر يوم السبت لستٍ خلون من شهر ذي الحجة سنة ثمانٍ وخمسين ومائة أي قبل أداء الحج بل قبل دخوله الحرم.

الفصل الثاني

خلافة محمّد المهديّ

بويع محمد المهديّ بالخلافة في صبيحة اليوم الذي تُوفِّي فيه والده أبو جعفر المنصور، وهو يوم السبت لستٍّ خلون من ذي الحجة سنة ثمانٍ وخمسين ومائة. وقد أخذ له البيعة في مكة ابنه موسى الهادي من رؤوس بني هاشم ومن القادة الذين كانوا مع أبي جعفر، وذلك قبل دفنه. وأخرج الربيع بن يونس حاجب المنصور قرطاساً، وقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلّف بعده من بني هاشم وشيعته من أهل خراسان وعامة المسلمين ـ ثم ألقى القرطاس من يده، وبكى وبكى الناس، فأخذ القرطاس، وقال: قد أمكنكم البكاء، ولكن هذا عهد عهده أمير المؤمنين، لا بُدّ من أن نقرأه عليكم، فأنصتوا رحمكم الله، فسكت الناس، ثم رجع إلى القراءة ـ أما بعد: فإني كتبت كتابي هذا وأنا حيّ في

آخر يومٍ من الدنيا وأول يومٍ من الآخرة، وأنا أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدي، ولا يُلبِسكم شيعاً، ولا يُذيق بعضكم بأس بعضٍ. يا بني هاشم ويا أهل خراسان... ثم أخذ بوصيتهم بالمهديّ، وتذكيرهم بالبيعة له، وحضّهم على القيام بدولته، والوفاء بعهده[1].

وبعث موسى بن المهديّ والربيع مولى المنصور منارة مولى المنصور بخبر وفاة المنصور وبالبيعة للمهديّ، وبعثا بعد بقضيب النبي ﷺ وبُردته التي يتوارثها الخلفاء مع الحسن الشرويّ، وبعث أبو العباس الطوسي بخاتم الخلافة مع منارة مولى المنصور، ثم خرجوا من مكة إلى مدينة السلام. وقدم منارة على المهديّ يوم الثلاثاء للنصف من شهر ذي الحجة، فسلّم عليه بالخلافة، وعزّاه، وأوصل الكتب إليه، وبايعه أهل مدينة السلام.

الولايات:

كانت الولايات هادئةً بشكلٍ عامٍ في خلافة

(١) تاريخ الطبري.

محمد المهديّ، ولم يحدث ما يُعكّر صفو الأمن إلا في ولايتين اثنتين منها وهما: الجزيرة وخراسان، فالجزيرة كانت قوة الخوارج فيها ظاهرةً، وقد قامت فيها حركة سنة اثنتين وستين ومائة، غير أنها أُخمدت، وقُضي عليها، وقُتل مُحرّكها. وأما خراسان فكان لها وضع خاص إذ كانت قاعدة المتلوّنين الذين يُظهرون الإسلام في سبيل سلامتهم، ويحقدون عليه حقيقةً، ويُبطنون المجوسية ويحلمون بعودتها بعد ضعف المسلمين نتيجة تخطيطهم وتآمرهم، ويُعلنون محبة آل بيت رسول الله ﷺ ضماناً لاستمرار نشاطهم وبقاء عملهم وتخطيطهم، وكسباً لأعوانٍ لهم من خارج خراسان بالعاطفة، والعامة عادةً أصحاب عاطفةٍ واندفاعٍ لما تتقبّله قلوبهم وتقتنع به عقولهم ولو بتأثير العاطفة إذ المحاكمة عندهم قليلة، وبهذا الأسلوب كسب المتلوّنون لهم مؤيّدين حرّكوهم في مواطن كثيرةٍ، وقاتلوا بهم الخلافة في معارك متعددةٍ فأحدثوا فِتناً أضعفت المسلمين، وفرّقتهم وأوهنت عزائمهم فطمع بهم الآخرون بل أدخلوا في عقول أتباعهم أموراً ليست من الإسلام ومخالفةً له كوراثة النبوة، وعصمة من يتوارثها، وأعطت هؤلاء الورثة في زعمهم صفات فوق مستوى البشر فكان ذلك خللاً في العقيدة من جهةٍ، ومن جهةٍ ثانيةٍ وقع خلاف

بين هؤلاء الأتباع ممن تزعزع عندهم صفاء الإسلام واهتزّ نقاؤه فكانوا فرقةً خاصةً وبين بقية المسلمين فكان شرخ في المجتمع استمرّ مع الأيام، ونرى آثاره في عصرنا قد يلتئم قليلاً ثم يعود فيظهر، يوسع الأعداء بين شفتيه، أو تظهر جماعة لها مراميها البعيدة أو تعود في أصولها إلى المتلوّنين فتسعى لإبعاد شفتي الشرخ بعضها عن بعضٍ. بل كانت إذا قامت جماعة ذات جذورٍ غريبةٍ وأفكارٍ شاذةٍ ادعت محبتها لآل النبي محمد ﷺ، وانتماءها إليهم لتكسب العطف فتُنسب في المجتمع على أنها من أتباع المتلوّنين.

ونرى أن حركات الزندقة، وتناسخ الأرواح، والارتباط بأبي مسلم الخراساني، أو الدعوة له وأن روحه تحلّ بقائد القائمين له، هذه الحركات كلها تظهر في شرقي ديار الإسلام ومعظمها بخراسان ولهذا معناه البعيد فيجب الانتباه.

ومع ذلك فقد كان الأمراء العباسيون يتغاضون عن هذا ولا يعلنونه أبداً، بل كانوا يُظهرون التقرّب من أهل خراسان، فيقولون في رسائلهم وتوجيهاتهم: إلى شيعتنا في خراسان، وذلك في سبيل إبقاء الجسور قائمة بين أهل خراسان وبقية مجتمعات الأمة

المسلمة، بل ومع الخليفة عسى أن يتخلّى الخراسانيون عن بعض أفكارهم أو يتنازلوا عن بعض مخططاتهم. كما كان الأمراء العباسيون يجزلون العطاء لسكان خراسان، ويُقدّمونهم على غيرهم للغرض نفسه، ويعتمدون عليهم في القتال فيبعثون بهم إلى مختلف الميادين، ويسخون عليهم بالأعطيات ليشجعوهم على السير في البعوث لعلهم يتأثّرون بالآخرين نتيجة الاختلاط والاحتكاك فيتبعون الطريق الصحيح، ولكن ذلك لم يُفد شيئاً إذ أن الراسخ في النفوس، الثابت من العقائد في القلوب لا يُغيّره التقرّب، ولا يُبدّله الإحسان وإن ظهر من صاحبه ما ظهر.

١" ـ مكة المكرمة:

كان والي مكة إبراهيم بن يحيى[1] بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس، ثم تولّى أمرها جعفر بن

---

(١) إبراهيم بن يحيى: أمير عباسيّ، ابن عمّ الخليفة محمد المهدي، ولي أمر مكة والطائف سنة ١٥٨هـ في أيام المهدي، وحجّ بالناس تلك السنة، وهو شاب أمرد، ونقل إلى إمارة المدينة سنة ١٦١هـ، وحجّ بالناس سنة ١٦٧هـ، فتوفي بعد عودته إلى المدينة بأيام.

سليمان[1] سنة ١٦١هـ حتى ١٦٦هـ حيث وليها عبيد الله بن قثم حتى خلافة موسى الهادي.

كان قد حجّ بالناس سنة ثمانٍ وخمسين ومائة أي في العام الذي سار فيه أبو جعفر المنصور للحج، غير أنه مات قبل أن يصل إلى الحرم، فحجّ بالناس بناءً على أمره ابن أخيه إبراهيم بن يحيى بن محمد، وكان يومئذٍ أمير مكة.

وحجّ سنة تسعٍ وخمسين ومائة خال المهدي يزيد بن منصور عند قدومه من اليمن. وكان انصراف

---

(١) جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه: أبو القاسم العباسي، ابن عمّ أبي جعفر المنصور. روى عن أبيه سليمان، وروى عنه ابناه القاسم ويعقوب.
كان من الأوائل جوداً، وشجاعةً، وعلماً ولي المدينة للمنصور سنة ستٍّ وأربعين ومائة حتى سنة خمسين ومائة، وولي مكة والمدينة والطائف للمهدي سنة إحدى وستين ومائة حتى سنة ستٍّ وستين ومائة، ثم عُزل، وولي البصرة للرشيد، وتوفي سنة أربعٍ وسبعين ومائة. مات عن ثمانين ولداً لصلبه منهم ثلاثة وأربعين ذكراً.
ولي ابنه أيوب اليمن في حياته
قال فيه حبيب بن شوذب:
يا أيها السائل عن هاشم ... هل لك في سيِّدها جعفرِ
هل لك في أشبههم غُرّةً ... إذا بدا بالقمر الأزهرِ

يزيد بن منصور من اليمن بكتاب المهديّ إليه يأمره بالانصراف إليه وتوليته إياه الموسم، وإعلامه اشتياقه إليه وإلى قربه.

وحجّ سنة ستين ومائة المهدي أمير المؤمنين وذهب معه ابنه هارون وجماعة من أهل بيته، وكان ممن شخص معه يعقوب بن داود، على منزلته التي كانت عنده، فأتاه حين وافى مكة الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي استأمن له يعقوب من المهدي على أمانه، فأحسن المهدي صلته وجائزته. وأقطعه مالاً من الصوافي بالحجاز.

ونزع المهديّ كسوة الكعبة التي كانت عليها، وكساها كسوةً جديدةً، وذلك أن حجبة الكعبة رفعوا إليه أنهم يخافون على الكعبة أن تتهدم لكثرة ما عليها من الكسوة، فأمر أن يكشف عنها ما عليها من الكسوة حتى بقيت مجردةً، ثم طُلي البيت كله بالخلوف. وذُكر أنهم لما بلغوا إلى كسوة هشام وجدوها ديباجاً ثخيناً جيداً، ووجدوا كسوة من كان قبله عامتها من متاع اليمن.

وقسم المهديّ في هذه السنة بمكة في أهلها ـ فيما ذُكر ـ مالاً عظيماً، وفي أهل المدينة كذلك، فذُكر

أنه نُظر فيما قُسم في تلك السفرة فوُجد ثلاثين ألف ألف درهمٍ، حُملت معه، ووصلت إليه من مصر ثلاثمائة ألف دينارٍ، ومن اليمن مائتا ألف دينارٍ، فقُسم ذلك كله. وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب[1].

وحمل محمد بن سليمان[2] سنة ستين ومائة الثلج إلى المهديّ، حتى وافى به مكة، فكان المهديّ أول من حُمل له الثلج إلى مكة من الخلفاء.

كما أمر المهدي سنة إحدى وستين ومائة ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه، أبو عبد الله: وُلد سنة ١٢٢هـ بالحميمة من بلاد البلقاء، تولّى إمرة البصرة أيام المهدي، وكان سنة ١٦٠هـ والي البصرة وكور دجلة والبحرين، وعُمان، وكور الأهواز وفارس، وعزل سنة ١٦٤هـ. وأعاده الرشيد وزوجه أخته العباسة بنت المهدي سنة ١٧٢هـ، واستمر في البصرة إلى أن توفي سنة ١٧٣هـ. وكان ثرياً نبيلاً. سمت نفسه للخلافة، وصدّه عن الجهر بطلبها قوة الخلفاء يومذاك. وكان قليل شعر الوجه. ويُعدّ فارس بني هاشم. وكان جواداً ممدحاً. قيل: إن الرشيد احتاط على تركته فكانت خمسين ألف ألف درهمٍ.

العباس بناها من القادسية[1] إلى زُبالة[2]، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كان بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع[3] في كل منهل، وبتجديد الأميال والبرك، وحفر الركايا[4] مع المصانع، وولّى ذلك يقطين بن موسى[5]، فلم يزل ذلك

---

(١) القادسية: موقع مشهور، لا أثر له الآن، وهو إلى جنوب غربي الكوفة بمائة وخمسة كيلومترات.

(٢) زُبالة: بضم أوله، منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية، وقال أبو عبيد السكوني: بعد القاع من الكوفة وقبل الشقوق، فيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني أسد، وقال ابن الكلبي: سميت زُبالة باسم زُبالة بنت مسعر امرأة من العمالقة نزلتها، ولا أثر لها اليوم، وموقعها شمال رفحة بمائة وعشرين كيلومتراً بالأرض العراقية ـ والله أعلم ـ.

(٣) المصانع أحواض الماء المسقوفة حرصاً على النظافة والبرودة.

(٤) الركايا: الحُفر والآبار.

(٥) يقطين بن موسى: داعية عباسيّ، كان ممن قرر أمرهم في الممالك والأقطار. قال ابن تغري بردي: كان داهيةً عالماً حازماً شجاعاً عارفاً بالحروب والوقائع، من أخباره أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية لما حبس إبراهيم بن محمد بـ(حرّان) تحيّر دعاة بني العباس فيمن يلي الأمر بعده إن قُتل، فذهب يقطين إلى مروان بصفة تاجرٍ فادعى أن له مالاً على إبراهيم، فأرسله إليه مع غلام، فلما رآه قال: يا عدو الله=

إليه إلى سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان خليفة يقطين في ذلك أخوه أبو موسى.

وحجّ بالناس سنة إحدى وستين ومائة ولي العهد موسى الهادي بن المهدي.

وحجّ بالناس سنة اثنتين وستين ومائة إبراهيم بن جعفر بن المنصور أي ابن أخي أمير المؤمنين محمد المهدي، وكان العباس بن محمد عمّ المهديّ استأذن المهديّ في الحج بعد ذلك، فعاتبه ألا يكون استأذنه قبل أن يُولّي الموسم أحداً فيوليه إياه، فقال: يا أمير المؤمنين، عمداً أخّرت ذلك لأني لم أردِ الولاية.

وحجّ بالناس سنة ثلاثٍ وستين ومائة عليّ بن المهديّ.

وعزم أمير المؤمنين محمد المهدي على الحج سنة أربعٍ وستين ومائة فانطلق، ومرّ على الكوفة فأقام

= من أوصيت بعدك آخذ مالي منه؟ فقال: إلى ابن الحارثية ـ يعني أخاه أبا العباس السفاح عبد الله بن محمد ـ فرجع يقطين إلى دعاة بني العباس فأخبرهم بما قال، فبايعوا أبا العباس. ويقطين هو الذي ولّاه المهدي سنة ١٦٧هـ بناء الزيادة الكبرى في المسجد الحرام، وأُدخلت فيه دور كثيرة.

أياماً، ثم خرج متوجهاً إلى الحج حتى انتهى إلى العقبة فقلّ عليهم الماء، وأُصيب بالحمى، فرجع من العقبة، واشتدّ على الناس العطش في منصرفهم، كما اشتدّ على رواحلهم حتى أشرفوا على الهلكة. ووجّه المهديّ عند انصرافه من العقبة أخاه صالح بن أبي جعفر المنصور من العقبة إلى مكة ليحجّ بالناس، فأقام صالح للناس الحج. وكذلك حجّ صالح بن أبي جعفر المنصور بالناس سنة خمسٍ وستين ومائة.

وحجّ بالناس سنة ستٍ وستين ومائة أمير مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن يحيى بن محمد، وأمر المهديّ سنة سبعٍ وستين ومائة بالزيادة في المسجد الحرام، فدخلت فيه دور كثيرة، وولّى بناء ما زيد فيه يقطين بن موسى، فكان في بنائه إلى أن تُوفّي المهديّ. وحجّ بالناس أيضاً في هذا العام إبراهيم بن يحيى بن محمد ابن عمّ أمير المؤمنين المهديّ محمد بن عبد الله بن محمد، وقد توفي بعد فراغه من الحج وعودته إلى المدينة بأيام، وهو أمير المدينة يومذاك.

٢" ـ المدينة المنوّرة:

كان أمير المدينة المنورة سنة ثمانٍ وخمسين

ومائة عبد الصمد بن عليّ[1]، وقد عزله المهدي عنها سنة تسعٍ وخمسين ومائة عن موجدةٍ، واستعمل على المدينة مكانه محمد بن عبد الله الكثيري، ثم لم يلبث أن عزله وولى مكانه عبيد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان الجمحي، فتوفي سنة ستين ومائة وهو والٍ على المدينة، فأعاد المهدي للولاية محمد بن عبد الله الكثيري، ولكن لم يلبث إلا يسيراً حتى عزله، وولّى مكانه زفر بن عاصم الهلالي. وولي القضاء فيها عبد الله بن محمد بن عمران الطلحيّ، وفي سنة إحدى وستين ومائة تولّى المدينة جعفر بن سليمان

---

(١) عبد الصمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه: عمّ أبي العباس وأبي جعفر المنصور، ولد بالحميمة من أرض البلقاء سنة خمسٍ ومائة. حدّث عن أبيه. وروى عنه الخليفة المهدي، وابنه إسماعيل بن عبد الصمد، وعبد الواحد ويعقوب ابنا جعفر ابن أخيه سليمان بن علي. ولي إمرة دمشق، والبصرة.
خرج مع أخيه عبد الله بن علي على ابن أخيهما أبي جعفر المنصور، وخلعا الطاعة، فتغلّب المنصور عليهما، فاستأمن لهما إخوتهما. وعاش عبد الصمد إلى أيام الرشيد الذي كان يحترمه ويجلّه. ومات عبد الصمد بالبصرة سنة خمسٍ وثمانين ومائة، وعمره ثمانون عاماً. وأمه كثيرة التي شبّب بها عبيد الله بن قيس الرقيات.

وبقي أميرها حتى سنة ستٍّ وستين ومائة، ثم ولّى المهدي عليها إبراهيم بن يحيى بن محمد، وبقي عاملاً عليها حتى توفي سنة سبعٍ وستين ومائة بعد فراغه من الحج حيث حجّ بالناس في ذلك العام، ومات إثر عودته إلى المدينة بأيام. وولي مكانه إسحاق بن عيسى بن عليّ حتى قام مكانه عمر بن عبد العزيز العمري سنة تسعٍ وستين ومائة.

وعندما حجّ الخليفة محمد المهدي سنة ستين ومائة مرّ على المدينة، وقسم على أهلها أموالاً عظيمةً، وفرّق من الثياب كذلك، ووسع في مسجد رسول الله ﷺ وأمر بنزع المقصورة التي في مسجد الرسول ﷺ فنُزعت، وأراد أن يُنقص من منبر رسول الله ﷺ فيُعيده إلى ما كان عليه، ويُلقي منه ما كان معاوية زاد فيه، فذُكر عن مالك بن أنس أنه شاور في ذلك، فقيل له: إن المسامير قد سلكت في الخشب الذي أحدثه معاوية، وفي الخشب الأول وهو عتيق، فلا نأمن إن خرجت المسامير التي فيه وزُعزعت أن يتكسّر، فتركه المهديّ.

وأمر المهديّ أيام مقامه بالمدينة بإثبات خمسمائة رجلٍ من الأنصار ليكونوا معه حرساً له وأنصاراً، وأجرى لهم أرزاقاً سوى أعطياتهم، وأقطعهم عند قدومهم معه ببغداد قطيعةً تُعرف بهم.

وتزوّج أثناء إقامته بالمدينة سنة ستين ومائة بـ(رقية) بنت عمرو العثمانية.

وأمر المهديّ سنة ستٍّ وستين ومائة بإقامة البريد بين مدينة الرسول ﷺ وبين مكة واليمن، بغالاً وإبلاً، ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك.

٣" ـ الطائف:

غالباً ما كانت الطائف تتبع والي مكة.

٤" ـ اليمن:

عزل المهدي خاله يزيد بن منصور عن اليمن وولى مكانه رجاء بن روح سنة تسعٍ وخمسين ومائة. ثم عزل رجاء وولى مكانه علي بن سليمان، وبعد عام عزله وولى مكانه عبد الله بن سليمان، ثم استبدله سنة أربع وستين ومائة بابن خاله منصور بن يزيد بن منصور. ثم تولّى أمر اليمن سنة ستٍّ وستين ومائة عبد الله بن سليمان الربعي، وخلفه عليها سليمان بن يزيد الحارثي، وأعقبه إبراهيم بن سَلْم بن قتيبة.

٥" ـ اليمامة:

عزل المهديّ عن اليمامة قُثَم بن العباس سنة تسعٍ وخمسين ومائة عن سخطةٍ، فوصل كتاب عزله إلى

اليمامة وقد تُوفّي فاستعمل مكانه بشر بن المنذر البَجَلي. ثم تبعت اليمامة سنة إحدى وستين ومائة إلى والي مكة جعفر بن سليمان حتى سنة ستٍّ وستين ومائة حيث حلّ مكانه عبد الله بن مصعب الزبيري، ثم عبيد الله بن قُثَم.

٦" ـ الكوفة:

كان أمير الكوفة عندما تسلّم المهدي الخلافة إسماعيل بن أبي إسماعيل الثقفي فعزله المهديّ سنة تسعٍ وخمسين ومائة وولّى مكانه إسحاق بن الصباح الكنديّ بمشورة شَريك بن عبد الله النخعيّ(١)، ثم كان على سوادها يزيد بن منصور سنة إحدى وستين ومائة.

وفي سنة أربع وستين ومائة تولّى أمر الكوفة هاشم بن سعيد بن منصور على حين بقي على قضائها شَريك بن عبد الله. وكان والي الكوفة سنة سبع وستين

(١) شَريك بن عبد الله بن الحارث النخعي، الكوفي، أبو عبد الله: عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بذكائه وسرعة بديهته، استقضاه المنصور على الكوفة سنة ١٥٣، ثم عزله، وأعاده المهدي، فعزله موسى الهادي، وكان عادلاً في قضائه، كان مولده في بخارى سنة ٩٥، وتوفي بالكوفة سنة ١٧٧.

ومائة روح بن حاتم[1]. وتوفي في الكوفة عيسى بن موسى لثلاث بقين من ذي الحجة سنة سبع وستين ومائة. وحضر روح بن حاتم جنازته، فقيل له: تقدّم فصلّ عليه فأنت الأمير، فأبى، وقال: فليتقدّم أكبر ولده، فتقدّم العباس بن عيسى، فصلى على أبيه. فبلغ ذلك المهديّ، فغضب على روح، وكتب إليه: قد بلغني ما كان من نكوصك عن الصلاة على عيسى، أبنفسك، أم بأبيك، أم بجدّك كنت تُصلّي عليه! أوَ ليس إنما ذلك مقامي لو حضرت. فإذ غبت أنت أولى به لموضعك من السلطان!

وأمر بمحاسبته، وكان يلي الخراج مع الصلاة والأحداث. وولي الكوفة موسى بن عيسى.

٧" ـ البصرة:

كان أمير البصرة سنة تسع وخمسين ومائة

---

(١) روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي: أمير من الأجود، كان حاجباً للمنصور، ولاه المهدي السند، ثم نقله إلى البصرة فالكوفة. وولاه الرشيد فلسطين ثم صرفه عنها، فتوجّه إلى بغداد، فوافق وصوله نعي أخيه يزيد بن حاتم أمير إفريقية، فأرسله الرشيد والياً عليها سنة ١٧١، فاستمر إلى أن مات سنة ١٧٤، ودفن إلى جانب أخيه، عُرف بالعلم والشجاعة.

عُمارة بن حمزة[1] وخليفته على ذلك المسوَر بن عبد الله بن مسلم الباهلي، وعلى صلاتها عبد الملك بن أيوب بن ظَبيان النميري، وعلى قضائها عبيد الله بن الحسن.

وتولّى أمر البصرة سنة ستين ومائة محمد بن سليمان، وتتبعه كور دجلة والبحرين وعُمان، وكور الأهواز وفارس، أما القضاء فكان عليه عبيد الله بن الحسن، وأمر سنة ١٦١ بالزيادة في مسجد الجامع بالبصرة فزيد فيه من جهة القبلة ومن ناحية الغرب. ثم تولّى أمر البصرة سنة أربعٍ وستين ومائة صالح بن داود بن عليّ، ولكن لم يطل عمله إذ حلّ مكانه على البصرة روح بن حاتم، أما كور دجلة والبحرين وعُمان، وكور الأهواز وفارس وكرمان فقد تولّى أمرها المعلى مولى أمير المؤمنين محمد المهدي. كما عُزل عبيد الله بن الحسن عن قضاء البصرة سنة ١٦٦هـ، وولي مكانه

(١) عمارة بن حمزة بن ميمون من ولد عكرمة مولى عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، الهاشمي بالولاء: الكاتب الأديب، أحد بلغاء زمانه، من الولاة الأجود الشعراء الصدور. كان أعور، وعمل كاتباً للمنصور، وكان من الدهاة، وكان المنصور والمهدي يرفعان قدره. له أخبار رائعة في الكرم، وفيه تيه يضرب به المثل «أتيه من عُمارة» وله ديوان رسائل.

خالد بن طليق بن عمران بن حصين الخزاعي. ثم رجع محمد بن سليمان إلى إمرة البصرة، وتولّى أمر القضاء عمر بن عثمان التيمي وذلك سنة ١٦٧هـ، واستمر ذلك إلى آخر خلافة محمد المهدي.

٨" ـ خراسان:

كان أمير خراسان حميد بن قحطبة عندما تسلّم محمد المهدي الخلافة، فتوفي سنة ١٥٩هـ فتولى أمر خراسان بعده أبا عون عبد الملك بن يزيد، وولي أمر سجستان حمزة بن مالك، وأمر سمرقند جبرائيل بن يحيى. ثم تسلّم إمرة خراسان عام ١٦٠هـ معاذ بن مسلم، وفي هذا العام خرج بخراسان يوسف بن إبراهيم الذي يقال له: «يوسف البَرْم»، وكان خروجه مُنكراً سيرة محمد المهديّ، واجتمع حول يوسف عدد كثير فتغلّب على مرو الروذ، والطالقان، والجوزجان، فوجّه إليه المهديّ القائد يزيد بن مزيد[1] فالتقيا، واقتتلا حتى

(١) يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني، أبو خالد: ابن أخي معن بن زائدة الشيباني، أمير من القادة الشجعان، ولي أرمينيا وأذربيجان، كما ولي اليمن. انتدبه هارون الرشيد لقتال الوليد بن طريف الشيباني الخارجي فقتله عام ١٧٩هـ، وعاد إلى أرمينيا، وتوفي عام ١٨٥هـ بـ(بردعة) من بلاد أذربيجان.

صارا إلى المعانقة، وتمكّن يزيد من أسر يوسف وبعثه مع عددٍ من وجوه أصحابه إلى المهدي فأمر بضرب أعناقهم.

وفي سنة إحدى وستين ومائة خرج المقنّع[1] بخراسان في قريةٍ من قرى مرو، وكان يقول بتناسخ الأرواح، فاستغوى كثيراً من البشر، وقوي أمره، ووصل إلى ما وراء النهر فوجّه إليه المهديّ والي خراسان يومذاك معاذ بن مسلم، ومعه عقبة بن مسلم، وجبرائيل بن يحيى، وليث مولى المهديّ، ثم أفرد المهديّ لمحاربته سعيد الحرشيّ، وضمّ إليه القواد، وأخذ المقنّع يتحصّن بقلعة «كش»، وبدأ يجمع فيها الطعام والعتاد استعداداً للحصار.

---

(١) المقنّع الخراساني: اسمه عطاء، مُشعوذ مشهور، كان قصاراً من أهل مرو، وتعلّق بالشعوذة، فادعى الربوبية (من طريق التناسخ) زاعماً أنها انتقلت إليه من أبي مسلم الخراساني، فتبعه قوم، وقاتلوا في سبيله، وكان مُشوّه الجسم فاتخذ وجهاً من ذهب تقنّع به، وأظهر لأشياعه صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسيرة شهرين ثم يغيب عنهم، قال أبو العلاء المعري:

أفق إنما البدر المقنّع رأسه ضلال وغيّ مثل بدر المقنّع

واشتهر أمره سنة ١٦١هـ. وعندما دخل المسلمون قلعته قتلوا من بقي فيها بعد قتل نفسه بالسم مع أهله.

سار سعيد الحرشيّ إلى المقنّع وحاصره بـ«كش»، فاشتدّ الحصار على المقنّع، وأحسّ بالهلكة، فشرب سُمّاً، وسقاه نساءه وأهله فماتوا جميعاً، ودخل المسلمون القلعة، وانتهى أمره وذلك سنة ثلاثٍ وستين ومائة.

وخرجت المحمرة تحت لواء عبد القهار في جرجان سنة اثنتين وستين ومائة فغلبوا على المنطقة فسار إليهم عمر بن العلاء[1] فتغلّب على عبد القهار وأصحابه وقتله.

وعزل المهديّ سنة ثلاثٍ وستين ومائة معاذ بن مسلم عن خراسان وولّاها المسيّب بن زهير[2]. وعزل

---

(١) عمر بن العلاء: من الموالي، عامل الخليفة المهديّ على طبرستان، ومن كبار قادته، كان جواداً حازماً.
قال بشار بن برد:
إذا أرّقتك جسام الأمور فنبّه لها عمراً ثم نَمِ
كان ابن العلاء جزّاراً من أهل الري، وجمع جمعاً وقاتلَ (سنباذ) حين خرج بطبرستان، في أيام المنصور، فأبلى البلاء الحسن، فأوفده جهور بن مرّار العجلي على المنصور، فجعله في جملة القواد، وحضنه، ثم إنه ولي طبرستان، واستشهد بها في خلافة المهدي سنة ١٦٥هـ.

(٢) المسيّب بن زهير بن عمرو الضبيّ، أبو مسلم: ولد سنة ١٠٠هـ، =

يحيى الحرشي عن أصبهان وولّى مكانه الحكم بن سعيد. وعزل سعيد بن دَعْلج عن طبرستان والرويّان وولّاهما عمر بن العلاء. وعزل مهلهل بن صفوان عن جرجان وولّاها هشام بن سعيد. واضطربت خراسان على المسيّب بن زهير سنة ١٦٦هـ فولّى المهديّ عليها الفضل بن سليمان الطوسي أبا العباس، وضمّ إليه معها سجستان فاستخلف على سجستان تميم بن سعيد بن دَعْلج بأمر المهديّ.

وعزل المهديّ سنة ١٦٧هـ يحيى الحرشي عن طبرستان والرويان وما كان إليه من تلك الناحية، ووليها عمر بن العلاء. وولّى جرجان فرّاشة مولى المهديّ، وعزل عنها يحيى الحرشيّ.

٩" ـ السند:

كان عامل السند معبد بن الخليل فتوفي سنة ١٥٩هـ، فاستعمل المهدي مكانه روح بن حاتم بمشورة أبي عبيد الله وزيره، ثم حلّ مكان روح بن حاتم على

= قائد من الشجعان، كان على شرطة المنصور والمهدي والرشيد ببغداد، وولاه المهدي خراسان مدة ثلاث سنواتٍ، مات سنة ١٧٥هـ في مِنى، ودفن في أسفل العقبة.

السند بسطام بن عمرو، ثم عزله وأعاد روح بن حاتم، ثم ولّى المهدي على السند نصر بن محمد بن الأشعث[1] سنة ١٦٣هـ، ثم عزله مدة ١٨ يوماً ثم أعاده حتى توفي سنة ١٦٤هـ فولّى مكانه سطيح بن عمر، ثم الليث مولى المهديّ سنة ١٦٥هـ.

١٠" ـ الجزيرة الفراتية:

عندما تولّى المهديّ الخلافة كان الهيثم بن سعيد أميراً على الجزيرة فعزله الخليفة المهدي سنة ١٥٩هـ، وولّى مكانه الفضل بن صالح الذي بقي في عمله حتى عُزل سنة ١٦١هـ، وتولّى أمر الجزيرة مكانه عبد الصمد بن عليّ.

وفي سنة ١٦٢هـ خرج في الجزيرة عبد السلام بن هاشم اليشكري، وهو زعيم الخوارج فيها يومذاك، وقد كَثُر أتباعه، واشتدت شوكته، وهزم عدداً من قادة المهدي منهم شبيب بن واج المروروذي، ثم جاءت نجدة

---

(١) نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي: من ولاة الدولة العباسية، كان عامل فلسطين وظفر بعبد الله بن مروان بن محمد بالشام، فأخذه إلى المهدي ببغداد، فحبسه في سجن (المطبق) سنة ١٦١، وولى المهدي نصراً السند، ثم عزله مدة ١٨ يوماً، ثم أعاده، وبقي أميراً عليها حتى توفي سنة ١٦٤هـ.

إلى شبيب قوامها مائة فارس، فخرج شبيب في أثر عبد السلام، فهرب منهم حتى أتى قنّسرين، فلحقه شبيب بها فقتله.

وسار الخليفة المهدي سنة ١٦٣هـ مع ابنه هارون الرشيد نحو الجزيرة، فلما وصل المهدي إلى الموصل وتجاوزها، وصار بأرض الجزيرة لم يتلقّه عبد الصمد بن علي أمير الجزيرة، ولا هيّأ له نُزُلاً، ولا أصلح له قناطر فحمل عليه المهدي في نفسه، فلما لقيه تجهّمه وأظهر له جفاءً، فبعث إليه عبد الصمد بألطافٍ لم يرضها، فردّها عليه، وزاد عليه سخطاً، فلما نزل المهدي حصن مسلمة دعا بعبد الصمد، وجرى بينهما كلام أغلظ المهدي فيه القول لعبد الصمد، فردّ عليه عبد الصمد ولم يحتمله، فأمر المهدي بحبسه وعزله عن الجزيرة، ولم يزل في حبسه في سفره ذلك وبعد أن رجع رضي عنه سنة ١٦٦هـ وخلّاه من حبسه الذي كان فيه، وأقام له العباس بن محمد النُزُل، حتى انتهى إلى حلب، فأتته البشرى بها بقتل المقنّع، وبعث وهو بها عبد الجبار المحتسب لجلب من بتلك الناحية من الزنادقة، ففعل، وأتاه بهم، وهو بدابق، فقتل جماعةً منهم وصلبهم، وأُتي بكتبٍ من كتبهم فقُطّعت

بالسكاكين. ثم عرض بها جنده، وأمر بالرحلة، وأشخص جماعة من وافاه من أهل بيته مع ابنه هارون إلى الروم، وشيّع المهديّ ابنه هارون حتى قطع الدروب، وبلغ جيحان، وارتاد بها المدينة التي تسمى المهدية، وودع هارون على نهر جيجان.

ثم سار المهديّ إلى بيت المقدس فصلى فيه، ومعه العباس بن محمد، والفضل بن صالح، وعلي بن سليمان، وخاله يزيد بن منصور. وعزل المهدي عن فلسطين إبراهيم بن صالح[1]، فسأله يزيد بن منصور حتى ردّه عليها[2].

ولما عزل المهدي عن الجزيرة عبد الصمد بن

---

(١) إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس: أمير هاشمي، كان يوصف بالعقل والدهاء ولّاه المهدي إدارة مصر ثم الجزيرة، وأخيراً عهد إليه بإمارة دمشق وما يليها والأردن وما حولها وجزيرة قبرص فبقي إلى أن مات المهدي، وخلفه الهادي فأقرّ إبراهيم على أعماله، ومات الهادي سنة ١٧٠ فولي الخلافة هارون الرشيد، فعزله وولى غيره مدة سنتين شبّت خلالها نار الفتن بين القيسية واليمانية فأعاده إلى إمارته، فأقرّ الأمن، وأعيد إلى ولاية مصر سنة ١٧٦ فتوفي فيها سنة ١٧٦هـ.

(٢) تاريخ الطبري.

عليّ ولّى مكانه زفر بن عاصم الهلالي. وفي سنة ١٦٣هـ عاد المهدي فعزل زفراً عن الجزيرة وولّى عليها عبد الله بن صالح بن علي، وكان المهدي نزل عليه في مسيره إلى بيت المقدس، فأُعْجب بَما رأى من منزله بـ(سَلَمية).

١١" - مصر:

كان أمير مصر عندما ولي المهدي الخلافة مطر مولى الخليفة أبي جعفر المنصور الراحل، فولّى المهديّ عليها سنة ١٥٩هـ محمد بن سليمان أبو ضمرة، فاستمر في عمله حتى أواخر عام ١٦٠هـ حيث عُزل، وولي مكانه سلمة بن رجاء، وبعد مرور عام على إمارته عُزل، وتولى عمله عيسى بن لقمان[1] في شهر المحرم من عام ١٦٢هـ، ثم عُزل في شهر جمادى الآخرة من العام نفسه، وولي مولى أمير المؤمنين المهدي الذي يُدعى واضح، وفي شهر ذي القعدة من العام نفسه أي ١٦٢هـ عُزل واضح وتولّى مصر يحيى الحرشيّ، ثم نُقل يحيى الحرشي إلى إمرة أصبهان، وتسلّم مصر إبراهيم بن صالح بن عليّ سنة ١٦٤هـ حتى سنة ١٦٦هـ حيث نُقل

(١) عيسى بن لقمان بن محمد الجمحي.

إلى إمرة الجزيرة الفراتية وولي مصر موسى بن مصعب.

١٢" ـ إفريقية:

كان والي إفريقية منذ سنة ١٥٤هـ يزيد بن حاتم، وقد قاتل الخوارج، ووطّد الأمن فيها، واستمرّ في إمارته فيها بقية أيام المنصور، وطيلة عهد المهدي، وإن كان المهدي قد ولّى ابنه هارون الرشيد سنة ١٦٣هـ المغرب كله وأذربيجان وأرمينية وجعل كاتبه على الخراج ثابت بن موسى، وعلى رسائله يحيى بن خالد بن برمك، غير أن يزيد بن حاتم قد بقي في إمارته على إفريقية باسم هارون حتى توفي سنة ١٧٠هـ في القيروان. فأرسل هارون الرشيد الذي كان قد تسلّم الخلافة روح بن حاتم أميراً على إفريقية مكان أخيه يزيد الذي توفي.



الولاية	١٥٨	١٥٩	١٦٠	١٦١
مكة المكرمة	إبراهيم بن يحيى	إبراهيم بن يحيى	إبراهيم بن يحيى	جعفر بن سليمان
المدينة المنورة	عبد الصمد بن علي	محمد بن عبد الله الكثيري عبيد الله الجمحي	عبيد الله الجمحي محمد بن عبد الله الكثيري	زفر بن عاصم جعفر بن سليمان
الطائف	إبراهيم بن يحيى	إبراهيم بن يحيى	إبراهيم بن يحيى	جعفر بن سليمان
اليمن	يزيد بن منصور	رجاء بن روح	علي بن سليمان	علي بن سليمان
اليمامة	قثم بن العباس	بشر بن المنذر	بشر بن المنذر	جعفر بن سليمان
الكوفة	إسماعيل الثقفي	إسحاق الكندي	إسحاق الكندي	إسحاق الكندي
البصرة	عمارة بن حمزة	عمارة بن حمزة	محمد بن سليمان	محمد بن سليمان
خراسان	حميد بن قحطبة	عبد الملك بن يزيد	معاذ بن مسلم	معاذ بن مسلم
السند	معبد بن الخليل	روح بن حاتم	بسطام بن عمرو روح بن حاتم	روح بن حاتم
الجزيرة	الهيثم بن سعيد	الفضل بن صالح	الفضل بن صالح	عبد الصمد بن علي
مصر	مطر	محمد بن سليمان أبو ضمرة	محمد بن سليمان أبو ضمرة	سلمة بن رجاء
إفريقية	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم

الولاية	١٦٢	١٦٣	١٦٤	١٦٥
مكة المكرمة	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان
المدينة المنورة	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان
الطائف	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان
اليمن	عبد الله بن سليمان	عبد الله بن سليمان	منصور بن يزيد	منصور بن يزيد
اليمامة	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان	جعفر بن سليمان
الكوفة	إسحاق الكندي	إسحاق الكندي	هاشم بن سعيد	هاشم بن سعيد
البصرة	محمد بن سليمان	محمد بن سليمان	صالح بن داود	روح بن حاتم
خراسان	معاذ بن مسلم	معاذ بن مسلم المسيّب بن زهير	المسيّب بن زهير	المسيّب بن زهير
السند	روح بن حاتم	نصر بن محمد	نصر بن محمد	سطيح بن عمر
الجزيرة	عبد الصمد بن علي	عبد الصمد بن عليّ	عبد الله بن صالح	عبد الله بن صالح
مصر	عيسى بن لقمان واضح	يحيى الحرشي	إبراهيم بن صالح ابن علي	إبراهيم بن صالح ابن علي
إفريقية	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم

الولاية	١٦٦	١٦٧	١٦٨	١٦٩
مكة المكرمة	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم
المدينة المنورة	إبراهيم بن يحيى	إبراهيم بن يحيى	إبراهيم بن يحيى إسحاق بن عيسى	إسحاق بن عيسى عمر العمري
الطائف	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم
اليمن	عبدالله الربعي	عبد الله الربعي	سليمان بن يزيد الحارثي	إبراهيم بن سَلْم ابن قتيبة
اليمامة	عبد الله بن مصعب الزبيري	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم	عبيد الله بن قثم
الكوفة	هاشم بن سعيد	روح بن حاتم	موسى بن عيسى	موسى بن عيسى
البصرة	روح بن حاتم	محمد بن سليمان	محمد بن سليمان	محمد بن سليمان
خراسان	المسيّب بن زهير الفضل بن سليمان	الفضل بن سليمان	الفضل بن سليمان	الفضل بن سليمان
السند	الليث	الليث	الليث	الليث
الجزيرة	عبد الله بن صالح	عبد الله بن صالح	عبد الله بن صالح	عبد الله بن صالح
مصر	إبراهيم بن صالح بن علي	موسى بن مصعب	موسى بن مصعب	موسى بن مصعب
إفريقية	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم	يزيد بن حاتم

الأندلس

كانت الأندلس قد انقطعت عن مركز الخلافة الإسلامية منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان عليها سنة ١٣٨هـ، واستمر أميراً عليها حتى سنة ١٧٢هـ، وقد حلّ المشكلات التي واجهته، ونظّم أحوال البلد، وقضى على المعارضة التي ظهرت، فاستقرت الأمور وساد الهدوء، غير أن الفرنجة لم تغمض لهم عين، ولم يهدأ لهم بال بوجود دولةٍ قويةٍ للمسلمين بالقرب منهم، فاتصلوا ببعض العصاة أمثال: سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي حاكم برشلونة، والحسين بن يحيى الأنصاري حاكم سرقسطة وغيرهما يُمنّونهم بالمكانة إن حصلوا على مبتغاهم، ويُلوّحون لهم بالمال إن حققوا مسعاهم، ويرسلون لهم الفرنجيات الفاتنات عسى أن يصبن هدفاً أو يصدن فريسةً، هذا إضافةً إلى ما في نفوس العصاة من حرقةٍ للإمارة ورغبةٍ في المكانة.

سار عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٤هـ إلى سرقسطة بعد أن سيّر إليها ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكرٍ

كثيفٍ سنة ١٥٨هـ. وكان سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى قد اجتمعا على خلع طاعة عبد الرحمن الداخل فقاتلهما ثعلبة قتالاً شديداً، وفي بعض الأيام عاد إلى مخيمه، فاغتنم سليمان بن يقظان غِرّته، فخرج إليه، وقبض عليه، وأخذه، وتفرّق عسكره. واستدعى سليمان بن يقظان ملك الفرنجة شارلمان لغزو الأندلس، وبعث إليه بثعلبة مقيّداً، فظنّ شارلمان أنه سيأخذ به عظيم الفداء، لذا رجع، ولم يهاجم الأندلس كما اختلف سليمان والحسين فباءوا بالخيبة والفشل في الدنيا، وبغضبٍ من الله، ولهم في الآخرة جهنم يصلونها وبئس المهاد.

وهذه صورة لما كان يجري في الأندلس التي غدت منقطعة الصلة بالخلافة الإسلامية.



الفصل الثالث

الجهاد أيّام محمّد المهدي

الجهاد منطلق الدعوة إلى الله، ووسيلة إبلاغ رسالة الإسلام، وأساس المهمّة الملقاة على عاتق الأمة، وبه انتشرت الدعوة في صدر الإسلام، وتوسّعت ديار المسلمين، وامتدّت الفتوحات، ودانت شعوب بالإسلام، ثم تراخت العاطفة، وشُغل الناس فضعف أمر الجهاد.

ثبت سلطان العباسيين وتوالى الخلفاء منهم الواحد بعد الآخر، ولم يَعُد يشغل أحدهم سوى المحافظة على السلطان، والنصر على المنافسة، واستخلاف ولده من بعده. إذ فترت روح الجهاد في النفوس ولم يتحرّك من يُزكيها، ولم يتكلّم من يُثيرها، ومالت النفوس إلى الدعة، وأخلدت إلى الأرض، ورغبت في الراحة، وربما غلبت بعضها الشهوة أو استأثرت بها الطيّبات، وسعى كل امرئٍ للذي يُعنى به. وفي الوقت نفسه فإن الأعداء الذين يتمثّلون بدولة الروم

بالدرجة الأولى التي لا تزال تشعر بمكانتها، وتريد أن تعود إلى سابق عهدها قبل أن يظهر المسلمون على الساحة، ويُقاتلونها، ويُذلّونها، ويجعلونها تتراجع عن كثيرٍ مما كانت تسيطر عليه، وتشعر بالضعف أمامهم وبالهوان إلى جانبهم. كان الروم يرغبون بالرجوع ما كانوا عليه واستعادة ما فقدوه من مكانةٍ وما أضاعوه من أرضٍ غير أنهم يعلمون علم اليقين أن هذا ليس بإمكانهم ما دامت راية الجهاد مرتفعةً عند المسلمين، وما دامت أعينهم ترنو إليها، وما دامت الفكرة سائدةً عندهم، وما دامت نفوسهم تتوق للشهادة في سبيل الله، لذا رأى الروم أن أفضل وسيلةٍ لإضعاف فكرة الجهاد عند المسلمين هي عدم التحرّش بهم أو غزوهم، فإن هذا يجعل المسلمين أكثر إخلاداً إلى الأرض وأكثر انصرافاً إلى الراحة، وأكثر نهلاً من الدنيا، وأكثر عبّاً من نعيم الحياة وخاصةً أن الدنيا قد أتتهم بزخرفها وجاءتهم تميس ببهرجتها، وقدمت نحوهم تتمايل بزينتها، غير أن المسلم المجاهد لا يلتفت إلى هذا أبداً، إذ هو واضع نصب عينيه أنه تارك دنياه وقادم إلى السؤال عما قدمت يداه وما جنى في حياته، أما غير المجاهد فينسى أنه مفارق ما هو فيه، محاسب عما يعمل.

ويرى الروم أن عدم التحرّش بالمسلمين مع انصرافهم إلى الدنيا يجعلهم يلتفتون بعضهم إلى بعض، يتقاتلون على السلطان ويتنافسون على الدنيا فيكون بأسهم بينهم فتضعف شوكتهم وتذهب ريحهم، وقد سبق للروم أن رأوا أن الجهاد، يخفّ عندما كان يقع الصراع بين المسلمين، بل يتوقّف عندما يتّسع نطاق ذلك الصراع كما حدث عندما بدأ الصدام بين الأمويين والعباسيين، وإن كانت الثغور محميةً والمجاهدون يُرابطون فيها استعداداً لكل طارئٍ وحذراً من غادرٍ يتربّص الدوائر. وها قد نبتت نبتة جديدة للأمويين، وتشير الأحداث إلى تجدّد الصراع بين الفريقين وإذا ما استفحل الأمر فلربما يعود للروم شأن، ولربما يعود للنصرانية موقع في تلك المنطقة التي شغلها المسلمون مرحلةً من الزمن. تفتّحت آمال جديدة عند الروم عندما خلع طاعة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور أحد قادة العباسيين الأركان، وأحد أفراد الأسرة الحاكمة بل المكلف بجهاد الروم وغزو ديارهم فانقلب على من بعثه، وثار على من سيّره، ودعا لنفسه؛ ذلك هو عبد الله بن عليّ عمّ الخليفة، فتوقّع الروم أن الأمر قد احتدم، وأن الخلاف قد وقع، وأن الانقسام قد حدث، وأن حالة المسلمين تمشي نحو الضعف، غير أن الظنّ

قد خاب إذ هُزم عبد الله بن عليّ، وفرّ متخفياً إلى أخيه سليمان بن علي، وبقي عنده ما يقرب من سبع سنوات، ثم طلبه المنصور، وهو يعلم موضعه، ولكن لا يريد اختلاف الأسرة، كما أن إخوة عبد الله، وهم كبار رجال الدولة قادةً وولاةً لم يريدوا الدفاع عنه خوفاً من حدوث انشقاق في البيت العباسي.

كما زادت أحلام الروم في ضعف المسلمين عندما دعا للعباسيين في الأندلس العلاء بن المغيث الجذامي، إذ توقّعوا أن الفتنة قد وقعت وأن نار الحرب قد اشتعلت بين الأمويين والعباسيين وأنها لن تخمد، ولكن خاب الظنّ أيضاً فقد قُتل العلاء وكبار أصحابه وسكت أبو جعفر المنصور على جرحه، وأدار ظهره للأندلس، وتركها وشأنها، وانصرف عنها، وعدّها لبني أمية يتصرّفون بها كيف يشاءون.

لم يقتنع الروم بخيبة ظنّهم ولا بسوء توقّعهم ورأوا أنه لا بدّ من العمل من جانبهم وإثارة الفتنة بين الفريقين من جهتهم، فالتقى الأخوان الخصمان الأرثوذكس حكام القسطنطينية والكاثوليك سادة روما ومعهم البابا والفاتيكان. كان اللقاء بين الأخوين الخصمين على أن يظهرا تأزّم الخلاف بينهما واشتداد

الأزمة بين بلدانهما، والمعاناة مما يلقى كل طرفٍ من المسلمين الذين يجاورونه، واتفقا ضمناً أن تكون هناك اتصالات أو سفارات مع جانبٍ من المسلمين في سبيل التعاون لقتال الخصم الثاني، فيتصل الروم الأرثوذكس في القسطنطينية مع الأمويين في قرطبة ويُبدون ما يلقونه من العباسيين من عنتٍ وغاراتٍ مستمرة، هؤلاء العباسيون الذين تسلطوا على الخلافة في المشرق، وأخرجوكم منها يا معشر الأمويين وفعلوا برجالكم ما فعلوا، وأنتم أدرى بما نالكم منهم، فإن رأيتم التعاون لإعادة حقكم إليكم وللتخلّص من شرورهم على أرضنا، وإنغاص حياتنا علينا. وفي الوقت نفسه يتصل الكاثوليك من إسبان وفرنجة على الحدود الشمالية لبلاد الأندلس بالعباسيين في بغداد ويُظهرون لهم ما يجدون من الأمويين في الغرب من عنتٍ وهجمات على السكان الآمنين، هؤلاء الأمويون الذين كانوا يغتصبون الخلافة، وقد نازعوكم عليها، وجعلوها حكراً عليهم، وأنتم أعلم بما لحقكم منهم فإن رأيتم التعاون للخلاص منهم خوفاً من الاعتداء عليكم فيما إذا قوي أمرهم، ومنازعتكم الخلافة ثانيةً فإن لهم أعواناً، ولهم حيلاً ووسائل. ورغم أن بعضهم قد جعل لهذه الاتصالات أو تلك دوراً، وأعطاها أهميةً، وأكثر من الحديث فيها،

كما أن بعضهم الآخر قد أهملها نهائياً ولم يلتفت إليها، وذلك لأن السياسة النصرانية لم تنجح بل أخفقت تماماً، لأن المسلمين ما داموا ملتزمين بعقيدتهم لا يمكن أن يركنوا إلى الكفار مهما وقع بين بعضهم بعضاً من خلافٍ أو صراعٍ وقتالٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

ولكن النصارى سواء فشلت خطتهم أم لم تفشل في إثارة الأمويين على العباسيين في سبيل إضعاف الفريقين أو بالأحرى إضعاف المسلمين على أمل أن يقوى الروم ويتمكّنوا من العودة إلى مكانتهم وإلى المواطن التي تخلّوا عنها أمام التقدّم الإسلامي، فإن نجاح الخطة النصرانية في إثارة الفتنة بين المسلمين بعضهم ضد بعضٍ، صحيح أنها تُضعف المسلمين لكن لا يخشى منها ضد أي طرفٍ من النصارى إذ لا ترتفع راية الجهاد ولا تدبّ الحماسة بين المسلمين جميعاً ما دام في كل طرفٍ فريق منهم. ولكن الذي يخشاه النصارى أو غيرهم من الأعداء جميعاً أن يكون النزال

(١) سورة المائدة: الآية ٥١.

مع المسلمين فعندما تنطلق فكرة الجهاد وترتفع رايته، وتدبّ الحماسة، ويتسابق المسلمون لنيل الشهادة في سبيل الله، ولم يبقَ أمام الأعداء سوى أن يولّوا الأدبار، ويتساقط بعضهم تحت أقدام المسلمين، ويتابع من نجا منهم الفرار، ويتخلّوا عن مواطن جديدةٍ، ويتقدّم المسلمون وتتوسّع ديارهم، ومن يبقى من سكان تلك المواطن المفتوحة معاهداً لا يلبث أن يعتنق الإسلام بعد أن يتعرّف عليه عن قرب بالاحتكاك مع أهله ومعاملتهم فيرى فيه دين الفطرة ويرى في أهله المثالية، وبذا يزداد عدد المسلمين وتتسع أرضهم على حساب الروم ومن أرضهم. هذا ما عرفه الروم من خلال حروبهم وعلاقتهم مع المسلمين، بل هذا ما عرفه كل الأعداء الذين وقفوا أمام المسلمين وفي وجه الدعوة للإسلام، لذا حرص الروم في هذه المرحلة خاصةً ألا يُثيروا المسلمين بغزو ديارهم أو الإغارة عليها، أو الاعتداء على السكان إذ يعلمون أنهم لو فعلوا ذلك لانطلقت راية الجهاد وكان التسابق لنيل الشهادة في سبيل الله، ولدبّت الحماسة عند المسلمين، وارتفعت حرارة الإيمان وزحفت مواكب المجاهدين تدكّ الحصون المنيعة بسهولةٍ، وتدحر الجيوش الجرارة أمامها بيسرٍ، وتدوس على الطغاة، وتحطّم الظالمين.

لذا كانت الجبهة من جهة الروم حذرةً يُجلّلها الخوف من ظلم طغاتها وجبروتهم ويكتنفها الرعب مما يُشيعه رهبانها وأتباعهم وظُلّامها وحاشيتهم عن حركة المجاهدين المسلمين وتقدّمهم، ولكن لا بدّ من أن يُداخل الغرور بعض القياصرة إما اعتداداً بالنفس، وإما جهلاً بمن يقاتل، وإما تحريضاً وتشجيعاً من بعض الخارجين على النظام أو الحاقدين، وما أن يباشر هذا القيصر الاعتداء حتى يرى ما لم يتوقّع إذ يرى فرساناً باعوا أنفسهم لله، لا يُبالون بشيءٍ بل إن الشهادة أحبّ إليهم من أيّ أمرٍ آخر يتقدّمون بخطىً سريعةٍ يحسبهم الناظر إليهم أنهم أسرع من البرق، وما هي إلا لحظات حتى يتطاير الغبار ويغطي جو المعركة ويلفّ المجاهدون جند القيصر ويتوغّلون في أرضه، كما حدث عندما حرّض بابك الخرّميّ الخارج على الخلافة العباسية، حرّض ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل على قتال المسلمين وأعلمه أن جندهم في أذربيجان، فغرّت تيوفيل نفسه، وشجّعه جهله، ودفعه شيطانه، وأغراه طمعه فسار على رأس مائة ألفٍ إلى بلاد المسلمين، وسارت معه الخرّمية الذين التجؤوا إلى بلاده، واتجه إلى ثغر «زِبَطْرَة» فخرّب البلدة، وسبى النساء، وقتل الذراري، وأخذ الأسرى، وقتل كل من وقع في يده،

ولما انتهى من «زِبَطْرَة» سار إلى «ملاطية» فأغار على أهلها، وعلى حصون المسلمين، وذلك في عهد المعتصم بن هارون الرشيد، وصاحب امرأة من «زبطرة» (وامعتصماه)، ووصلت الأخبار إلى المعتصم، فغضب لله، وقال: لُبِّيتُم. كما شاعت الأخبار في المجتمع الإسلامي، فأثّرت بالناس، فأخذتهم الحمية لله، فانطلقوا تلقائياً يبغون الجهاد، وكان الخليفة المعتصم قد أعلن النفير، فانطلق الجميع في موكب الجهاد، وسار الخليفة على رأس الموكب، وعسكر إلى الغرب من نهر دجلة، وبعث عجيف بن عنبسة، وعمراً الفرغاني نجدةً لأهل زِبَطْرة، فوجدا أن الروم قد ارتحلوا عنها بعد أن فعلوا بأهلها ما فعلوا. ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرّميّ سار مسرعاً إلى بلاد الروم، وسأل عن أقوى حصن، فقيل له: عمورية، ولم يتعرّض لها أحد من القادة المسلمين من قبل، وأنها عين النصرانية، وأشرف عندهم من القسطنطينية، فأقام على نهر سيحان، وأمر قائده «الإفشين» أن يدخل بلاد الروم عن طريق «الحَدَث»، كما أمر القائد الآخر «أشناس» أن يدخل أرض العدو عن طريق «طرسوس»، وحدّد لهما يوماً يلتقيان فيه عند «أنقرة»، وانطلق إثرهما سريعاً، ودخل المسلمون «أنقرة»، واتجهوا بعدها إلى

«عمورية». وكان الخليفة المعتصم على قلب الجيش، و«الإفشين» على الميمنة، و«أشناس» على الميسرة، ووصلوا إلى «عمورية» في السادس من رمضان سنة ثلاثٍ وعشرين ومائتين، والمسافة بين أنقرة وعمورية سبعة مراحل أي أربعون ومائة كيلومتر. فكانوا قد توغّلوا في أرض العدو أكثر من خمسمائة كيلومتر، ودكّ المسلمون عمورية ودخلوها منتصرين ـ بإذن الله ـ. وما اعتدى الكفار على المسلمين إلا أُلهب المسلمون حماسةً وخرجوا مجاهدين، وما سار المسلمون مجاهدين صادقين إلا نالوا النصر ـ بإذن الله ـ إلا إذا اقتضت حكمة الله أن يكون عبرةً ودرساً وتربيةً. لذا كان الروم حريصين ألا يخرج المسلمون مجاهدين، فإن أكثر ما يُرهب الأعداء كلمة الجهاد. هذا إضافةً إلي هيبة المسلمين في نفوس الروم والتي استقرّت من خلال المعارك التي خاضوها معهم والتي تمكّنت خلال التاريخ، فما كان الروم ليجرؤوا على القيام بحركةٍ نحو ديار الإسلام إلا بعد دراساتٍ ومداولاتٍ لما يعرفون من نتائج متوقّعةٍ، على حين كان المسلمون يتقدّمون لغزو الروم باستمرار على الأقل في الصيف والشتاء لتبقى هيبتهم ثابتةً في نفوس الروم، وكي لا يخطر في بال الروم التطاول على المسلمين، ولذا كانت الأرض

التي يُسيطر عليها الروم في ضمورٍ وانكماشٍ وتراجعٍ مستمرٍ، وإن كان ذلك بشكلٍ بطيءٍ وعلى فتراتٍ متفاوتةٍ وتختلف تماماً عما كانت عليه في صدر الإسلام إذ كان تراجع الروم وقتها سريعاً وعلى مساحاتٍ شاسعةٍ، وكان تقدّم المسلمين على شكل خطواتٍ واسعةٍ، وانتصاراتٍ مُؤزّرةٍ، وبعد أن ضعفت فكرة الجهاد لدى المسلمين بانصرافهم إلى الدنيا وإهمال رعاتهم غدا تقدّمهم ضئيلاً، وانتصارهم قليلاً، وتوسّع ديارهم ضعيفاً، والإقبال على دينهم بسيطاً، وأداء مهمتهم في الحياة جزئياً.

ومن المعلوم أن الجهاد ليس له وقت معلوم، ولكن عندما يكون الاستعداد جاهزاً والظروف مواتيةً، والمسلمون يجب أن يكونوا على أُهبة الاستعداد في كل وقتٍ، وليست هناك ظروف تحول دون انطلاق المسلمين للجهاد، فما دامت مهمة المسلمين في الحياة هي إيصال الإسلام إلى الناس جميعاً لإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ظلمات الشرك إلى ضياء التوحيد، ومن طغيان الظلم إلى سيادة العدل، ومن غطرسة الاستعباد إلى شمول الأخوة، وهذا لا يتمّ إلا بالجهاد لأن المتألهين على الخلق والطغاة والجبابرة

والكهنة لا يتنازلون عما ينالونه، ولا يقرّون بحقٍ إلا إن كان يتفق ومصالحهم، ولا يعترفون بعدلٍ إلا إذا كانوا يحققون من ورائه غاياتهم.

وهم يجبرون رعاياهم على الإقرار بأن قولهم نظام، وعملهم حق، وتصرّفهم عدل، والتبعية لهم دين، والخضوع لهم واجب، ولهم الحق بالتصرف برعاياهم وما يملكون دون تذمّرٍ أو اعتراضٍ، وبقبولٍ دون تأفّفٍ، وبرضا من غير شكوى، وبسماحةٍ تامةٍ دون بقاء أثرٍ في النفس. هكذا كانت حياة المجتمعات غير الإسلامية في تلك المرحلة من التاريخ.

ومهمة المسلمين إنقاذ هذه المجتمعات الجاهلية مما تعاني، وحملها رعاةً ورعيةً إلى جادة الصواب لينعموا بهذه الحياة آمنين مطمئنين لا تشعر الرعية بالجور وظلم السلطان، ولا تستوطن رغبات التعالي والشر في نفوس الرعاة، ولا يكون هذا إلا بالجهاد وإلزام المعتدين بالرجوع إلى الحق وإخراج المظلومين من مستنقع الاستعباد والضلال.

وانطلق المسلمون الأوائل إلى ساحات الجهاد صادقين مخلصين يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، فآتاهم الله نصراً من عنده فهزموا أعداءهم، وفتحوا

بلادهم، وجاءتهم الخيرات من كل مكان، وارتفعت مكانتهم بين الأمم والشعوب حتى كانوا سادة الدنيا، وأقبلت شعوب البلدان المفتوحة نحو الإسلام تغبّ من مناهله التوحيد والرحمة والعدل والشفقة حتى كان الناس سواسيةً، وتستقي من ينابيعه حبّ الخير والصدق والإخلاص والعمل حتى تفتّحت أزاهير الطمأنينة، وأثمرت براعم الأمن، وتفتّقت ثمرات الفضل، وخرجت مكنونات القلوب المؤمنة فكانت الأمة الرشيدة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فعاش أبناؤها بالرخاء، وشعر أفرادها بالسعادة، وأحسّت شعوبها بالطمأنينة، وذاقت مجتمعاتها حلاوة الإيمان... وأدرك الأعداء واقع المسلمين الرائع فحقدوا عليهم وحسدوهم، ومع معرفتهم أسباب العزّ إلا أنهم استكبروا واستحبوا العمى على الهدى لبقاء مصالحهم واستمرار شهواتهم فحافظوا على ضلالاتهم.

وعندما يخرج المسلمون للجهاد ما كانوا يقاتلون عدوّاً إلا ويُعرضون عليه الإسلام؛ فإن قبل ودخل في الإسلام كان جنده إخوةً للمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، فإن أبى عرضوا عليه الجزية ـ إن كان رجاله من أهل الكتاب أو ممن يتبعهم ـ فإن وافق كان في

ذمتهم، وعليهم حمايته ضمن شروط، فعسى أن يعرف حقيقة الإسلام عن قُرب ويُقبل عليه طائعاً فيكون من أهله، وإن أبى أو كان من غير أهل الكتاب فليس إلا السيف حتى يحكم بين الفريقين، وينصر الله عباده المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

كان هذا العرض على الأعداء من سمات الجهاد في الإسلام، فلما ظهرت علائم الضعف على المسلمين بالخلاف في الاجتهاد الذي أدّى إلى افتراق الكلمة وتجزئة الصف فتغيّرت بعض السمات وإن لم يتبيّنها بعض المسلمين نتيجة الانصراف إلى بحث الافتراق والخلاف فلم ينتبهوا إلى التغيّرات التي حدثت وبقي القتال يحمل اسم الجهاد، ولعلّ أهم هذه السمّات التي تبدّلت:

١" ـ لم تعد هناك دعوة للإسلام إلى الأعداء قبل القتال، أو قبول الجزية إن كان الخصوم من أهل الكتاب، وذلك حتى يعذر المسلمون أنفسهم في القتل، ويكون العمل خالصاً لله.

---

(١) سورة الروم: الآية ٤٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٠.

٢" ـ حُدِّد وقت الجهاد بالصيف والشتاء إذ أصبحت جيوش تنطلق للجهاد في فصل الصيف يقال لها الصوائف، وأخرى تسير في فصل الشتاء يقال لها الشواتي. ولما كانت بلاد الروم شديدة البرد في فصل الشتاء، لذا قلّت الجيوش التي تدخل أرض الروم في فصل الشتاء، ثم توقّفت، وبقيت الصوائف فقط، ونتيجة هذا فإن الأعداء يستعدّون، ومن هذا الاستعداد أن يخلوا أرضهم أمام المسلمين حتى يتوغّل المسلمون بعيداً فينصب الأعداء لهم الكمائن ويقطعون عليهم الدروب وربما أُصيب المسلمون بخسائر جسيمة، غير أن المسلمين كانوا على بصيرةٍ من أمرهم لا يقعون في مثل هذه الحيل، لذا كانوا يدخلون قليلاً في أرض العدو ثم يعودون لم يُحقّقوا هدفاً ولم يُؤدّوا مهمةً بل لم يجاهدوا، إذ كان دخولهم أقرب إلى الغزو بل إلى الغارة، وفعلاً قد يغزون منطقةً على نطاقٍ ضيقٍ، أو يُغيرون على مدينة ثم يعودون، وهذا ليس بجهاد إذ لا ينشرون الإسلام بل لا يدعون له، كما لا يحصلون على غنائم وهذا ما يسعون له فيما إذا كان القتال بمعنى الغزو.

كان المسلمون يستمرون في بعث الصوائف حتى

لا تضعف هيبتهم في أعين الروم فيتجرؤون عليهم. وكان الروم يستعدّون لمواجهة المسلمين حتى لا يطمع المسلمون في دولتهم أكثر، وليبقوا على حذرٍ فيما إذا شنّوا هجوماً أو تقدّموا داخل بلاد الروم.

هذه هي الحال التي كانت عليها أوضاع جبهة المسلمين مع الروم. وكان إذا حصل المسلمون على نصرٍ ـ وهذا ما كان يجري ـ فإنه يعدّ قليلاً إذا قورن بالانتصارات التي كان يحرزها المسلمون في صدر الإسلام.

الجبهة الغربية:

غزا العباس بن محمد بن علي الصائفة سنة تسع وخمسين ومائة، ووصل إلى أنقرة، وكان على مقدمته الحسن الوصيف في الموالي. وكان المهدي ضمّ إليه جماعةً من قادة أهل خراسان وغيرهم، وتمّ في هذه الغزوة فتح بعض مدن الروم، ورجع المسلمون سالمين لم يُصب أحد منهم بأذىً.

وغزا الصائفة سنة إحدى وستين ومائة ثمامة بن الوليد، فنزل دابق، وجاشت الروم وهو مغترّ، فأتت طلائعه وعيونه بذلك، فلم يحفل بما جاءوا به، وخرج

إلى الروم، وعليها ميخائيل على المقدمة، فأُصيب عدد من المسلمين.

وكان عيسى بن علي مرابطاً يومئذٍ بحصن «مرعش».

وفي سنة اثنتين وستين ومائة خرجت الروم إلى حصن «الحَدَث» فهدموا أسواره.

وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة فخرّب كثيراً في بلاد الروم، ولكنه لم يفتح حصناً، ولم يدخل مدينةً. كما غزا يزيد بن أسيد السلميّ من جهة «قاليقلا» ففتح ثلاثة حصونٍ، وغنم، وأصاب سبياً كثيراً وأسرى.

وفي سنة ثلاثٍ وستين ومائة حشد المهدي جموعاً كثيرةً من عددٍ من الأجناد، وخرج فعسكر بـ(البَرَدان)[1]، فأقام بها نحواً من شهرين يتعبّأ ويتهيّأ، ويُعطي الجنود، وأخرج بها صلاتٍ لأهل بيته الذين

---

(١) البَرَدان: من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها، ولعلها كانت منزل الرقيق، وكلمة (برده) بالفارسية تعني الرقيق المجلوب حديثاً، وجرت العادة أن يلحقوا الدال والألف والنون في بعض ما يجعلونه وعاءً للشيء، أو مقراً له. وهناك عدة مواضع تحمل اسم (البردان) في الحجاز والشام.

خرجوا معه. فتوفّي عيسى بن عليّ في آخر جمادى الآخرة. وخرج المهدي من الغد إلى (البَرَدان) متوجّهاً إلى الصائفة، واستخلف ببغداد موسى بن المهدي. ومن البردان وجّه ابنه الرشيد على الصائفة وخرج معه يُشيّعه حتى قطع الدرب، وبلغ جيحان، وودّع هارون على نهر جيحان، وأغزى معه موسى بن عيسى وعبد الملك بن صالح بن عليّ، والربيع بن يونس الحاجب، وخالد بن برمك، ويحيى بن خالد بن برمك.

سار هارون بعد وداع أبيه حتى نزل رستاقاً بأرض الروم فيه قلعة، يقال لها (سَمالو)، فأقام عليها ثماني وثلاثين ليلةً، وقد نصب عليها المجانيق، حتى فتحت ـ بإذن الله ـ بعد تخريبٍ لها، وعطشٍ وجوعٍ أصاب أهلها، وبعد قتلٍ وجراحاتٍ كانت في المسلمين، وكان فتحها على شروط شرطها أهلها لأنفسهم: لا يُقتلوا ولا يُرحّلوا، ولا يُفرّق بينهم، فأُعطوا ذلك، ووُفِّي لهم، وقفل هارون بالمسلمين سالمين إلا من كان أُصيب منهم بها.

وفي سنة أربعٍ وستين ومائة غزا عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب بلاد الروم من جهة درب الحَدَث فأقبل إليه ميخائيل البطريق

في نحوٍ من تسعين ألفاً فيهم البطريق الأرمني (طازاذ)، ففشل عبد الكبير في مواجهته فانصرف عنه ومنع المسلمين من القتال، فأراد المهدي ضرب عنقه فكُلّم فيه فاكتفى بسجنه.

وفي سنة خمسٍ وستين ومائة وجّه محمد المهدي ابنه هارون لغزو بلاد الروم فسار يوم السبت لإحدى عشرة ليلةً بقيت من جمادى الآخرة، وسار معه بأمر أبيه الربيع بن يونس، فوغل هارون في بلاد الروم، فافتتح ماجدة، ولقيته خيول (نقيطا) قومس القوامسة، فبارزه يزيد بن مزيد، فأرجل يزيد ثم سقط (نقيطا)، فضربه يزيد حتى أثخنه، وانهزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم. وسار إلى الدمستق (بنقُمودية)، وهو صاحب المسالح. وسار هارون في خمسةٍ وتسعين ألفاً وسبعمائةٍ وثلاثةٍ وتسعين رجلاً، وحمل لهم من العين مائة ألف دينارٍ وأربعةً وتسعين ألفاً وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الوَرِق واحداً وعشرين ألف ألف وأبعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم. وسار هارون حتى بلغ خليج البحر الذي على القسطنطينية. وصاحب الروم يومئذٍ (أغُسطه) امرأة (أليون)، وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينها وبين

هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفدية، فقبل ذلك منها هارون، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تُقيم له الأدلّاء والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلاً صعباً مخوّفاً على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينارٍ، تُؤدّيها في كانون الأول في كل سنةٍ، وفي حزيران، فقبل ذلك منها، فأقامت له الأسواق في منصرفه، ووجّهت معه رسولاً إلى المهديّ بما بذلت على أن تؤدّي ما تيسر من الذهب والفضة. وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسُلِّمت الأسارى. وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً، وقُتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً، وقُتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً، ومما أفاء الله عليه من الدواب الذُّلل عشرون ألف دابة، وذُبح من البقر والغنم مائة ألف رأس، وكانت المرتزقة سوى المطّوّعة وأهل الأسواق مائة ألفٍ، وبيع البرذَوْن بدرهمٍ، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفاً بدرهم، فقال مروان بن أبي حفصة في ذلك:

أَطَفْتَ بقسطنطينةِ الروم مُسْنِداً

إليها القنا حتى اكتسى الذُّلَّ سورها

وما رِمْتَها حتى أتتك ملوكها

بجزيتها، والحرب تغلي قدورها[1]

ورجع هارون بن المهديّ ومن كان معه من خليج قسطنطينية في شهر المحرم لثلاث عشرة ليلةً بقيت منه، وقدمت الروم بالجزية معهم، ومقدارها فيما قيل: أربعة وستون ألف دينار رومية، وألفان وخمسمائة دينار عربية، وثلاثون ألف رطل من الصوف المرعزيّ.

وقد أخذ المهديّ البيعة على قواده لهارون بعد موسى بن المهديّ وسمّاه الرشيد.

ونقض الروم الصلح الذي عقدوه مع هارون بن المهديّ في رمضان سنة ثمان وستين ومائة، فكان بين أول الصلح ونقض الروم له اثنان وثلاثون شهراً. فوجّه علي بن سليمان وهو يومئذٍ على الجزيرة وقِنِّسرين يزيد بن بدر بن البطال في سريةٍ إلى الروم فغنموا وظفروا.

---

(١) تاريخ الطبري.

الجبهة الشرقية:

وجّه المهديّ ابنه موسى سنة سبعٍ وستين ومائة في جمعٍ كثيفٍ من الجند إلى جرجان (ونداهرمز) و(شَرْوِين) صاحبي طبرستان، وجعل المهدي على رسائل ولده موسى (أبان بن صدقة)، وعلى جنده (محمد بن جميل)، وعلى حجابته (نقيع) مولى أبي جعفر المنصور، وعلى حرسه (علي بن عيسى بن ماهان)، وعلى شرطه (عبد الله بن خازم).

وبعث موسى الجنود إلى (ونداهرمز) و(شَرْوِين)، وأمّر على الجند (يزيد بن مزيد) فحاصرهما.

ووجّه المهديّ إلى طبرستان سعيد الحرشيّ في أربعين ألف رجلٍ سنة ثمانٍ وستين وألف.

في البحر:

وجّه المهديّ سنة تسعٍ وخمسين ومائة عبد الملك بن شهاب المِسمعي في البحر إلى بلاد الهند، فسار معه ألفان من أجناد أهل البصرة، وألف وخمسمائة من مرابطي أهل البصرة، وألف من المتطوعين من أهل البصرة أيضاً، وقد ذهبوا بأموالهم، كما وجّه معه قائداً من أهل الشام يقال له: «يزيد بن

الحُباب المذحجي» في سبعمائة رجل. وقد ولّى عبد الملك بن شهاب على جند البصرة ولديه غسان وعبد الواحد.

وافى عبد الملك مدينة (باربد) بمن معه، فناهض أهلها بعد قدومه بيوم، وأقاموا عليها يومين، ثم هاجموها بإمكاناتهم كلها، وقصفوها بالمنجنيق، ففتحها الله عليهم عَنوةً، ودخلت خيلهم من كل ناحيةٍ، وقتل المشركون جميعاً، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلاً، وبعد أن أحرز المسلمون هذا النصر رجعوا إلى الساحل للعودة إلى بلادهم. وهاج البحر فلم يستطيعوا ركوبه والانصراف، فأقاموا إلى أن يهدأ، فأصابهم داء في أفواههم، فمات منهم ما يقرب من ألف رجلٍ. ثم انصرفوا لما أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلاً من فارس، فعصفت عليهم فيه الريح ليلاً، فحطّمت عامة مراكبهم، فغرق بعضهم ونجا الآخرون، وقدموا بما حصلوا عليه من السبي على والي البصرة، وهو يومئذٍ محمد بن سليمان، وكان بين السبي بنت ملك (باربد).

وغزا الغمر بن العباس الهند بحراً سنة إحدى وستين ومائة.

الفصل الرابع

جذور البلاء

إن انتصارات المسلمين، وامتداد سلطانهم، وقضاءهم على دولة الفرس، ودحرهم دولة الروم أمامهم وإخراجها من أمصار واسعةٍ، واستمرار تفوّقهم على أعدائهم وانتصاراتهم على خصومهم، كل هذا جعل قلوب الأعداء وخاصةً من المجوس تمتلئ غيظاً عليهم، وتكاد أكبادهم تتفطّر حقداً وخاصةً بعد أن رأوا أن غالبية مجتمعهم قد اعتنقوا الإسلام، ودانوا به، واتبعوا منهجه. وحار الحاقدون ما يفعلون، إن أظهروا ما في أنفسهم قُتلوا، وإن سكتوا ماتوا غيظاً وحقداً، فرأى بعضهم الخروج من ديارهم، ففعلوا، وارتحلوا والتحقوا ببلادٍ لا يزال أهلها على كفرهم غير أن المسلمين يسيرون وراءهم مجاهدين في سبيل الله، وهذا واجب عليهم، وقد أُخذ عليهم الميثاق بذلك منذ أن دخلوا بالإسلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ

لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]. ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[2]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾[3]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ...﴾[4].

رأى فريق من هؤلاء الحاقدين أن المسلمين سيكونون وراءهم أينما ارتحلوا، وأنهم بإمكانهم متابعتهم ما داموا بهذا الإيمان وهذه العزيمة وهذا الإصرار وهذا التصميم، لذا رأوا أنه من الأولى لهم ومن الأفضل قبول هذا الإسلام واتباع منهجه كأغلبية أفراد المجتمع، على حين رأى فريق آخر أن عليهم المقاومة، والمحافظة على العصبية التي نشأوا عليها،

(١) سورة التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩.
(٢) سورة التوبة: الآية ٤١.
(٣) سورة النساء: الآية ٧١.
(٤) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

والتمسّك بما ورثوه عن آبائهم من عقائد وأفكار، وأنه لا يمكنهم ذلك إلا إذا تلوّنوا بما عليه الفاتحون المسلمون وغالبية المجتمع أي إلا إذا أظهروا الإسلام، وأخفوا حقيقتهم عن الوسط الذي يعيشون فيه، وأبطنوا عقيدة أسلافهم السابقين من عبادة النار وتقديس «زاردشت»، وأنهم بهذا الفعل يستطيعون الهدم من الداخل، ولا يمكن لأحدٍ أن يتهمهم فظاهرهم مسلمون، ويعملون بواقعهم الذي هم عليه من إيقاع الفتنة بين المسلمين، وتحريض جماعةٍ على أخرى، وافتراء كلامٍ على الجماعة التي جعلوها خصماً لهم بل وللأمة، واختلاق كلامٍ آخر فيه ثناء وتأييد وأمل على الجماعة التي جعلوها المنقذ، وكأنه قد عُهد إليها بقيادة الأمة وإرشادها وتوجيهها ما دامت الأمة قائمةً تُؤدّي دورها في الحياة وتحمل المهمة المناطة بها.

بدأ المتلوّنون بالفتنة فأخذوا يتكلّمون في فضل أصحاب رسول الله ﷺ، فيفضّلون بعضهم على بعض حسب هواهم، وحسبما يريدون أن يصلوا بكلامهم إلى الفتنة، والكلام إنما يكون عن كبار الصحابة، فادّعوا حقّ الخلافة بأحدهم بل حصروها به ـ ليس حباً به وتفضيلاً بل لإحداث الفتنة ـ واتخذوا العاطفة وسيلةً

لهم في ذلك ـ وفي الناس أصحاب عاطفةٍ وطيبٍ، فكان الخلفاء الآخرون ـ حسب زعم المتلونين ـ مغتصبين معتدين على حق غيرهم. مع العلم أن الخلافة شورى، وليست وراثيةً، ولكن المتلونين أرادوا إحداث خللٍ وفتنةٍ. ومع الأسف لا تزال طائفة من أصحاب العاطفة تقبل هذا، وتسير في خطٍ منحرفٍ وراء أولئك الأشخاص من المتلوّنين.

تآمر عدد قليل من المتلوّنين على الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأقدم أحدهم مغامراً بنفسه، وقتل الخليفة، فمات شهيداً.

وتعاون الأعداء جميعاً من يهودٍ ونصارى ومجوسٍ وأحدثوا فتنةً بإشاعاتٍ كاذبةٍ ادّعوها، وافتراءاتٍ باطلةٍ صاغوها فتأثّر بعض الأعراب، وحديثي الإسلام والذين في قلوبهم مرض فعصفت الفتنة بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه فصبر محتسباً، وقُتل شهيداً.

ونتيجة ما حدث من افتراءاتٍ وفتنٍ طغت على السطح جماعة تنادي بأخذ الأمور بالشدّة والضرب بيدٍ من حديدٍ بل غدت تُكفّر كل من لم يأخذ برأيها وخرجت على الخليفة من داخل صفوف أعوانه، وأقدم

أشقاها وقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمات شهيداً.

وعلى الرغم مما وقع في الفتنة من أحداثٍ فادحةٍ، وآثارٍ سيئةٍ، ونتائج وخيمةٍ، ووقائع داميةٍ إلا أن المتلوّنين لم يقنعوا بكل ما حدث، ولم يرق لهم ما جرى إذ رأوا أن الأحداث كانت سطحيةً والآثار هامشيةً وما دام لم يقع من خللٍ في العقيدة، ولم ينبرِ المسلمون بعضهم لبعض قتلاً، ولم تمتلئ قلوب بعضهم على بعضٍ حقداً فإنه لم يجر شيء، ولم يقع ما تُسرّ له قلوب الأعداء، ولم ترتح له نفوس الحاقدين.

أيام الأمويين:

أخذ المتلوّنون يُثيرون أحداث الجاهلية وخلاف عشائر قريشٍ بعضها مع بعضٍ، وخاصةً بطون بني عبد مناف من بني هاشمٍ وبني أمية فأطنبوا في محاسن بني هاشم إرضاءً لعواطف المسلمين وبالغوا في مثالب بني أمية، وتحدّثوا في مرحلة بداية الإسلام عن دور بني هاشم وما بذل أكثرهم، وتناسوا موقف أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب حتى نزل فيه من القرآن ما يُبيّن إساءته، وتكلّموا في موقف بعض رجال بني أمية

السلبي، وتناسوا موقف عثمان بن عفان رضي الله عنه وسابقته وما قدّم في سبيل الدعوة، وموقف خالد بن سعيد بن العاص وأخيه عمرو بن سعيد وسابقتهما وما قدّماه في سبيل الدعوة، وركّزوا على أبي سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه، قبل إسلامه وحربه للدعوة الإسلامية، وركّزوا كذلك على هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وما فعلته ضدّ الدعوة، وكان التركيز على أبي سفيان وهند بصفتهما والدي معاوية مؤسس الدولة الأموية، وتناسوا إسلامهما يوم فتح مكة وتغاضوا عن حديث رسول الله ﷺ: (الإسلام يجبّ ما كان قبله).

فالمتلوّنون قد أثاروها عصبيةً جاهليةً ولم يُنتبه إليهم لأن الحديث عن ذلك كان بين فئاتٍ معينةٍ، وإن كان يظهر في أيامنا أنه كان عاماً، وإذا انتبه إليهم أحد، قيل: إنهم يذكرون أحداثاً تاريخيةً.

استطاع المتلوّنون أن يكسبوا لهم أتباعاً لأن عملهم كان ضمن فئاتٍ حاقدةٍ، وجماعاتٍ حديثة العهد بالإسلام، ونماذج بسيطةٍ عاطفيةٍ، وأعرابٍ، وموتورين. وما أن شعر الموتورون أن وراءهم أتباعاً حتى بدأوا يثيرون الفتن، ويحرّضون على الخلافة

بالسرّ، ويستقدمون أشخاصاً إلى مناطق إقامتهم لخلع الطاعة، وإذا جاءهم من دعوه تخاذلوا عنه، أو أسلموه. وخاصةً إن لم يوافقهم على آرائهم كلها كما فعلوا بزيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما لم يُوافقهم على رأيهم في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حيث انفضّوا عنه، رغم أنهم كانوا قد دعوه إليهم وشجّعوه للخروج، فلما تخلّوا عنه، قال لهم: أرفضتموني، فأصبحت هذه علماً عليهم إذ عُرفوا باسم «الرافضة».

استمرّ المتلونون طيلة العهد الأموي وهم يثيرون الطالبيين ضد الأمويين، ويعملون على إيقاع الفتنة بين الطرفين وإشعال نار الحرب بين الجانبين لا يهمّهم هذا الجانب أو ذاك، بل همّهم القضاء على الفريقين ما داما على الإسلام، وإن كانوا يتظاهرون أنهم بجانب الطالبيين لكسب عاطفة المسلمين ولإظهار القوة، وعلى أنهم يُكافئون الجانب الآخر الذي بيده السلطان كي يتشجع الناس وينضمّوا إلى جانبهم.

وقعت فتن عدة في العهد الأموي وحدثت لقاءات غير أن الطالبيين لم يُوفّقوا في لقاءٍ، وذلك لأن الذين يدفعونهم، ويُشجّعونهم، ويُبدون أنهم يُضّحون من

أجلهم يخذلونهم في الساعة الحرجة عند التقاء الصفوف حرصاً على سلامتهم أنفسهم وذلك دليل عدم صدقهم، وابتغائهم الفتنة فقط وعدم محبتهم لمن يظهرون أنهم قد جعلوا أنفسهم فداءً لهم. وتكون النكبات والمآسي نتيجة القتال فيتخذها المتلوّنون وسيلةً جديدةً لتحريض الناس وإثارة الفتن، وهكذا إثر كل لقاءٍ وبعد كل صراعٍ.

والقوة بجانب أصحاب السلطان فشكل طبيعي أن يتفوّق الأمويون ويخسر الطالبيون، وكيف لا يخسرون وغالبية أتباعهم من المتلوّنين الذين يتخلّون عنهم قبل بدء النزال، هذا رغم أن عاطفة كثيرٍ من الناس إلى جانبهم، وربما بقيت هذه العاطفة مع الزمن نتيجة الأسلوب الذي دُوّنت به الكتب والعاطفة التي صيغت بها.

وأما الذين ينظرون إلى مصلحة الأمة وواقعها الذي تعيش به والأعداء الذين يُحيطون بها، والذين يتظاهرون بالإسلام وما هم من أهله، ومهمتهم الوقيعة بين أهله هؤلاء يرون أن الخلافة شورى بين المسلمين، وأن طالب الولاية لا يُولّى، فكيف بمن يريد الحصول عليها عن طريق دماء المسلمين وإحداث شرخٍ في المجتمع وبين أبناء الأمة.

أيام العباسيين:

لما رأى المتلوّنون أن الدعوة إلى بني العباس منظّمة وسريّة انخرطوا فيها، بل كان بعض رؤوسها من الذين دفعوا بها واندفعوا فيها بعد ضعف همّة الطالبيين وفشل الحركات التي قاموا بها حتى تخلّوا عنهم أصحاب العواطف، وذلك لأن أشياعها لم يكونوا صادقين فيما يدعون له.

انطلقت دعوة العباسيين بقوةٍ، وأخذت تسيطر على المنطقة تلو الأخرى، وشعر المتلوّنون أنهم لم يفعلوا شيئاً إذ أزيحت قوة الأمويين وخلفتها قوة العباسيين، وهم لا فرق عندهم بين الأمويين والعباسيين فكلاهما يحمل لواء الإسلام، ويُنادي به، ويدعو له، والقوة بيده، وهم يريدون إضعاف المسلمين حتى يتمكّنوا منهم ويسيطروا عليهم، ويعملوا على القضاء عليهم، وإعادة دولة الفرس وعقيدتهم المجوسية.

رأى المتلوّنون نجاح الحركة العباسية فقرّروا الإساءة إليها قبل أن يشتدّ عودها، وتضمن القوة الكافية، فإن الإساءة من الأتباع تتحمّلها القيادة فتُسيء سمعتها وتنخفض مكانتها، فأخذ الأتباع بالتصرّفات المشينة فنبشوا القبور، وأخرجوا الجثث البالية، وقتلوا،

وظلموا فتحملّت القيادة التبعات ونُسبت إليها الأعمال والتصرفات، ومعروف أن جيش عبد الله بن عليّ الذي كان يُتابع الأمويين ويُلاحق مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في الشام هو الذي قام بتلك التصرّفات وكان أكثر جنده من خراسان.

استطاعت الحركة العباسية أن تتجاوز هذه العقبة واستمرّ خط تقدّمها البياني بالارتفاع، فقرّر رؤوس المتلونين أن يُغيّروا أسلوبهم في الهدم، ووجدوا أن أفضل عمل لهم في إضعاف المسلمين هو الإيقاع بين أفراد الأسرة العباسية نفسها، واختاروا عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس بصفته عمّ الخليفة، وتحت إمرته أكبر قوةٍ للعباسيين، وهو الذي دحر القوات الأموية وهزم آخر خلفاء بني أمية، فهو الذي يمكن أن يُنافس الخليفة، ويُفرّق قوة بني العباس، ويفرط عقد اجتماعهم، وتتحرّك فئات مناوئة، وأخرى مُتنطّحة للسلطان، وأصحاب مصالح ويضعف أمر المسلمين، ويتهيأ المتلوّنون لتنفيذ ما يُخطّطون له.

توفي الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبد الله بن محمد بن عليّ فعَهِد من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي ومن بعده لابن أخيه عيسى بن

موسى بن محمد بن علي. وكان القائد عبد الله بن عليّ يسير على رأس جيشٍ من جند الشام والجزيرة وخراسان لغزو الروم، فلما بلغه خبر وفاة الخليفة توقّف ليستوضح الأمر ويبحث فيما يجب فعله. وجاءه من معه من المتلوّنين يُثيرونه ويدفعونه إلى المطالبة بالخلافة فيقولون: أنت أولى بها من غيرك، جدك عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهيبتك في أعين الناس كبيرة إذ قهرت خصمك، وقضيت على عدوّك، والقوة الرئيسية بيدك ويمكن بها أن تصل إلى ما تصبو إليه نفسك، ولا أحد يُنازعك، ولو تصدّرت للأمر لم يختلف عليك اثنان، فأثار هذا الكلام ما في نفس عبد الله بن عليّ من نوازع، وأعلن من معه من خراسان الطاعة له، فدعا لنفسه، فاختلّ الوضع، واهتزّ الأمر.

واتخذ الخليفة أبو جعفر المنصور مع عمّه عبد الله بن عليّ الدهاء إذ بعث له أبا مسلم الخراساني سيّد خراسان، وأكثر جيش عبد الله بن عليّ من خراسان، ولم يكن المنصور ليهتمّ أيهما يقتل الآخر فكلاهما يريد أن يتخلّص منه، وإن كان على ثقةٍ أن الكفّة سترجح إلى جانب أبي مسلم ما دام أتباعه أكثر جند خصمه.

سار أبو مسلم الخراساني إلى خصمة عبد الله بن عليّ الذي شعر أن جنده الذين شجّعوه على خلع الطاعة، والدعوة لنفسه هم الذين سينحازون إلى خصمه عند اللقاء ما دام سيّدهم، وستدور الدائرة عند ذلك على عمّ الخليفة، وسيبدأ الصراع الداخلي، لذا فقد قتل من جند خراسان الذين هم في جيشه سبعة عشر ألفاً. ومن بقي منهم كان ناقماً عليه، ولا يمكن أن يَصْدُق في القتال معه.

وجرى اللقاء وهُزم جيش عبد الله بن عليّ، فترك عبد الله وأخوه عبد الصمد المعسكر وأتيا العراق، فنزل عبد الله عند أخيه سليمان بن عليّ بالبصرة فأقام عنده، وأما عبد الصمد فقد سار إلى الكوفة فاستأمن له أخوه إسماعيل بن عليّ، وقيل: إن الذي استأمن له هو ابن أخيه عيسى بن موسى.

وافق أبو جعفر المنصور إعطاء الأمان لعمه عبد الصمد وسكت عن عمّه عبد الله وهو يعرف نزوله عند عمه سليمان وذلك حتى لا يقع صراع في الأسرة، وهو ما يعمل له المتلوّنون، وبذا فوّت على المتلوّنين تنفيذ مخططهم.

وكان الخليفة أبو العباس قد عهد لابن أخيه

عيسى بن موسى بعد عمه أبي جعفر المنصور، غير أن المنصور قد أحبّ أن يعهد من بعده لابنه محمد المهدي وأن يؤخّر ابن أخيه عيسى بن موسى، فلم يقبل عيسى بن موسى أن يُؤخّر نفسه، وحاول المتلونون استغلال هذه المواقف وإثارة الخلاف ولكن المنصور لجأ إلى أساليب متعددة حتى رضي عيسى بن موسى أن يقدّم محمد المهديّ عليه، وانتهى الخلاف، وفاتت الفرصة على المتلوّنين.

وما ترك المتلوّنون فرصةً إلا وحاولوا استغلالها للإيقاع بين العباسيين بعضهم مع بعضٍ، وقد ينجحون أحياناً في إثارة الفتنة وتندلع الشرارة، ثم لا تلبث أن تُطفأ، ويندمل الجرح ويُضمّد، وينتهي الموضوع كما حدث أيام الأمين والمأمون، وأيام المتوكل مع ابنه و...

ولما لم ينجح مخطط المتلوّنين عادوا مرةً أخرى فأخذوا يُثيرون الطالبيين، ووقعت عدة فتنٍ نتيجة ذلك، وضعف تماسك المسلمين وأصابهم الوهن.

ومع التخطيط الدائم، والسرية التامة حتى لا ينكشف الأمر وتكون الطامة الكبرى فيُباد المتلوّنون بل ويذهب معهم ضحايا قرابةً ونسباً، ومع مكر الليل والنهار فإن هناك أصحاب عصبيةٍ شديدةٍ لا يبغون

الانتظار والتريّث لنجاح المخططات، وحتى يضعف المسلمون ـ وقد لا يضعفون ـ فقد كان هؤلاء من أصحاب العصبيات يقومون بحركاتٍ ذات جذورٍ إلحاديةٍ تحارب الإسلام والمسلمين وتمتدّ إلى أصولٍ وعقائد بائدةٍ قضى عليها الإسلام كالراوندية والخرّميّة و. . . وبالعودة إلى الجذور تُعرف الأصول والأهداف غير أن المؤرخين ـ مع الأسف ـ لم يُركّزوا على هذا الجانب مراعاةً للعواطف، وحرصاً على عدم الصراع.

والمتلوّنون عامةً فريقان: فريق غير مسلمٍ وإن ادّعى ذلك، حاقد على الإسلام والمسلمين، يعمل لإعادة ما دُرس ويبذل جهده ببذل الشائعات ضدّ المسلمين، وببثّ أفكارٍ في الشرع غريبةٍ عنه، ولهذا الفريق التوجيه والقيادة ما دام هو المخطط وصاحب الفكر، ومع ذلك فهذا الفريق هو الأقل عدداً. أما الفريق الآخر فهو من المسلمين ولكن غلبتِ عليه العاطفة الدينية نحو آل البيت فانقاد للفريق الأول فدخلت في أفكاره لوثات تصل إلى حدّ الخطورة أحياناً، وهذا الفريق هو الأكثرية غير أنه يخضع للفريق الأول في أفكاره وتوجيهه وقيادته.

ومع الأسف لم توجّه للفريق الثاني العناية الكافية لإنقاذه مما وقع فيه، ومما أصابه من الوحل.

الفصل الخامس

شخصية المهدي

كان المهديّ طويلاً مُضَمّر الخلْق، جعداً، أسمر، وكان في عينه اليمنى نكتة بياض، وكان ذا جودٍ وكرمٍ، وحياءٍ وحلمٍ، ودينٍ وتقىً، يتأنّى قبل أن يتكلَّم، ولا يُصدر أمراً قبل أن يتأمّل.

• كان المهدي إذا جلس للمظالم، قال: أدخلوا عليَّ القضاة، فلو لم يكن ردّي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى.

• جلس المهدي ذات يومٍ يعطي جوائز تقسم بحضرته في خاصّته من أهل بيته والقادة، وكانت تُقرأ عليه الأسماء، فيأمر بالزيادة، العشرة الآلاف والعشرين الألف، وما أشبه ذلك، فعُرِض عليه بعض القادة، فقال: يُحطُّ هذا خمسمائة، قال: لِمَ حططتني يا أمير المؤمنين؟ قال: لأني وجَّهتك إلى عدوٍّ لنا فانهزمت،

قال: كان يسرّك أن أُقتل؟ قال: لا، قال: فوالذي أكرمك بما أكرمك به من الخلافة لو ثبتُّ لقتلت، فاستحيا المهدي منه، وقال: زده خمسة آلاف.

• غضب المهدي على بعض القادة ـ وكان عتب عليه غير مرة ـ فقال له: إلى متى تذنب إليَّ وأعفو؟ قال: إلى أبد نسيء، ويُبقيك الله فتعفو عنا، فكررها عليه مراتٍ فاستحيا منه ورضي عنه.

• قال مسور بن مساور: ظلمني وكيل للمهدي وغصبني ضيعةً لي، فأتيت سلّاماً صاحب المظالم، فتظلّمت منه وأعطيته رقعةً مكتوبةً، فأوصل الرقعة إلى المهدي، وعنده عمّه العباس بن محمد، وابن علاثة، وعافية القاضي. فقال لي المهدي: ادنُ، فدنوت، فقال: ما تقول؟ قلت: ظلمتني، قال: أفترضى بأحد هذين؟ قلت: نعم، قال القاضي: فادنُ مني، فدنوت حتى التزمت بالفراش، قال: تكلّم، قلت: أصلح الله القاضي! إنه ظلمني في ضيعتي هذا، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يدي، قلت: أصلح الله القاضي، سَلْهُ، صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها؟ فسأله: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: صارت إليَّ بعد الخلافة. قال: فأطْلِقْها له، قال:

قد فعلت، فقال العباس بن محمد: والله يا أمير المؤمنين لَذا المجلس أحبّ إليّ من عشرين ألف درهم.

• قال الحسن الوصيف: أصابتنا ريح في أيام المهدي حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر، فخرجت أطلب أمير المؤمنين، فوجدته واضعاً خدّه على الأرض، يقول: اللهم احفظ محمداً في أمته، اللهم لا تُشمت بنا أعدانا من الأمم، اللهم إن كنت أخذت هذا العالم بذنبي فهذه ناصيتي بين يديك قال: فما لبثنا إلا يسيراً حتى انكشفت الريح وانجلى ما كنا فيه.

• قال الهيثم بن عديّ: دخل على المهدي رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، إن المنصور شتمني وقذف أمي، فإما أمرتني أن أحِلّه، وإلّا عوّضتني واستغفرت الله له، قال: ولِمَ شتمك؟ قال: شتمت عدوّه بحضرته، فغضب، قال: ومن عدوّه الذي غضب لشتمه؟ قال: إبراهيم بن عبد الله بن حسن، قال: إن إبراهيم أمسّ به رحماً وأوجب عليه حقاً، فإن كان شتمك كما زعمت، فعن رحمه ذَبَّ، وعن عرضه دفع، وما أساء من انتصر لابن عمه، قال: إنه كان عدوّاً له، قال: فلم ينتصر للعداوة، وإنما انتصر للرحم، فأسكت الرجل، فلمّا ذهب ليولّي، قال: لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعةً

عندك أبلغ من هذه الدعوى، قال: نعم، قال: فتبسّم وأمر له بخمسة آلاف درهمٍ.

• قال الربيع بن يونس الحاجب: رأيت المهديّ يصلي في بهوٍ له في ليلةٍ مقمرةٍ، فما أدري أهو أحسن أم البهو، أم القمر، أم ثيابه، فقرأ هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾[1]. فأتمّ صلاته والتفت إليّ فقال: يا ربيع، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: عليّ بموسى، وقام إلى صلاته، فقلت: مَن موسى؟ ابنه موسى، أو موسى بن جعفر، ـ وكان محبوساً عندي ـ فجعلت أفكّر، فقلت: ما هو إلا موسى بن جعفر، فأحضرته. فلما أنهى المهدي صلاته، قال: يا موسى، إني قرأت هذه الآية: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾[1]. فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوثّق لي أنك لا تخرج عليّ، قال: نعم، فوثّق له وخلّاه.

• قال عبد الله بن محمد بن عطاء: خرج المهديّ بعد هدأةٍ من الليل يطوف بالبيت، فسمع أعرابيةً من

(١) سورة محمد: الآية ٢٢.

جانب المسجد وهي تقول: قومي مُقْتِرون، نَبَتْ عنهم العيون، وفدحتهم الديون، وعقّتهم السنون، بادت رجالهم وذهبت أموالهم، وكثُر عيالهم، أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وصية الله ووصية الرسول، فهل من آمرٍ لي بخير، كلأه الله في سفره، وخلفه في أهله، فأمر المهدي نصيراً الخادم فدفع إليها خمسمائة درهمٍ.

● ذكر أن المهديّ أمر سنة ستٍّ وستين ومائة بالصوم ليستسقي الناس في اليوم الرابع، فلما كان في الليلة الثالثة أصابهم الثلج، فقال لقيط بن بُكير المحاربيّ في ذلك.

يا إمام الهدى سقينا بك الغيـ
ـث وزالت عنا بك اللأواء
بتَّ تُعنى بالحفظ والناس نُوّا
م عليهم من الظلام غطاء
رقدوا حيث طال ليلك فيهم
لك خوف تضرّع وبكاء
قد عنتك الأمور منهم على الغفـ
ـلة من معشرٍ عصوا وأساءوا
وسُقينا وقد قُحطنا وقُلنا
سنة قد تنكّرت حمراء

بدعاءٍ أخلصته في سواد الـ

ليل لله فاستُجيب الدعاء

بثلوجٍ تُحيا بها الأرض حتى

أصبحت وهي زهرة خضراء

• كان للمهدي ابنة تُدعى (البانوقة)، سمراء حسنة القدّ حلوة، ماتت في عهد أبيها فأظهر عليها جزعاً شديداً، فجلس للناس يعزّونه، وأمر ألا يحجب عنه أحد، فأكثر الناس في التعازي، واجتهدوا في البلاغة، فكان أوجز تعزية وأبلغها تعزية شبيب بن شيبة[1]، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، الله خير لها منك، وثواب الله خير لك منها، وأنا أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتنك. ويُذكر أن شبيباً قد قال: أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رُزئت أجراً، وأعقبك صبراً، لا أجهد الله بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة، ثواب الله خير لك منها، ورحمة الله خير لها منك، وأحق ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى ردّه.

---

(١) شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقري الأهتمي، أبو معمر: أديب الملوك، وجليس الفقراء، وأخو المساكين، من أهل البصرة، كان يقال له: «الخطيب» لفصاحته، وكان شريفاً، من الدهاة، ينادم الخلفاء ويفزع إليه أهل بلده في حوائجهم. توفي في أوائل خلافة الرشيد.

• أمر المهديّ سنة إحدى وستين ومائة بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر وتصييرها إلى المقدار الذي عليه منبر رسول الله ﷺ وكتب بذلك إلى الآفاق فعُمل به.

• أمر المهدي سنة تسعٍ وخمسين ومائة، أي بعد أن آلت إليه الخلافة، أمر بإطلاق من كان في سجن المنصور، إلا من كان قِبَله تباعة من دمٍ أو قتلٍ، ومن كان معروفاً بالسعي بالفساد في الأرض، أو من كان لأحدٍ قِبَله مظلمة أو حق، فأُطلِقوا.

• ظفر نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعي بعبد الله بن مروان بالشام، فقدم به على المهدي قبل أن يوليه السند، فحبسه المهدي في سجن المطْبَق، فذكر أبو الخطاب أن المهديّ أُتي بعبد الله بن مروان ـ وكان يكنى أبا الحكم ـ فجلس المهديّ مجلساً عاماً في الرصافة، فقال: من يعرف هذا؟ فقام عبد العزيز بن مسلم العقيلي، فصار معه قائماً، ثم قال له: أبو الحكم؟ قال عبد الله: نعم، ابن أمير المؤمنين، هذا عبد الله بن مروان، فعجب الناس من جرأته، ولم يعرض له المهدي بشيء.

• لما حبس المهديّ عبد الله بن مروان احتيل

عليه، فجاء عمرو بن سهلة الأشعري، فادعى أن عبد الله بن مروان قتل أباه، فقدّمه إلى القاضي (عافية)، فتوجّه عليه الحكم أن يُقاد به، وأقام عليه البيّنة، فلما كاد الحكم يبرم جاء عبد العزيز بن مسلم العقيلي إلى عافية القاضي يتخطّى رقاب الناس، حتى صار إليه، فقال: يزعم عمرو بن سهلة أن عبد الله بن مروان قتل أباه، كذب والله ما قتل أباه غيري، أنا قتلته بأمر مروان، وعبد الله بن مروان من دمه بريء، فزالت عن عبد الله بن مروان، ولم يعرض المهديّ لعبد العزيز بن مسلم لأنه قتله بأمر مروان.

• أمر المهديّ سنة اثنتين وستين ومائة أن تجري الأعطيات على المجذومين وأهل السجون في جميع الآفاق.

• أمر المهديّ بإقامة البريد بين مدينة الرسول ﷺ، وبين مكة واليمن، ولم يُقَم بريدٌ قبل ذلك.

• أرسل المهدي ابنه موسى الهادي إلى جرجان، وجعل على قضائه أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم[1].

---

(١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف: صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر=

• كانت النصائح في الأمور الحسنة إلى المهدي مثل الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب، وفكاك الأسارى، والسجناء، والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعففين، فكان يأمر بتنفيذ ذلك.

• أمر باتخاذ المصانع في كل منهل على طريق مكة، وبتجديد البُرك، وحفر الركايا والمصانع.

• جدّ المهديّ في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم، وعهد بذلك إلى أحد الأشداء.

• أمر المهديّ بتوسعة المسجد الحرام، فتمّ ذلك، ودخلت في هذه التوسعة دور كثيرة عُوّض أصحابها ثمنها وبما يرضيهم.

• خطب المهديّ يوماً، فقال: عباد الله،

= مذهبه، ولد سنة ١١٣هـ بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، فكان فقيهاً علّامة، من حفّاظ الحديث، ثم لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. ومات في خلافة الرشيد سنة ١٨٢هـ ببغداد، وهو على القضاء، وهو أول من دعي «قاضي القضاة»، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة. وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

اتقوا الله، فقام إليه رجل، فقال: وأنت فاتق الله، فإنك تعمل بغير الحق. فأُخذ الرجل بعد الصلاة وحُمل، فجعلوا يتلقّونه بنعال سيوفهم، فلما أُدخل عليه قال: يا ابن العاملة، تقول لي وأنا على المنبر: اتق الله، قال: سوأة لك، لو كان هذا من غيرك كنت المستعدي بك عليه، قال: ما أراك إلا نبطياً، قال: ذاك أوكد للحجة عليك أن يكون النبطيّ يأمرك بتقوى الله. فرُئي الرجل بعد ذلك، فكان يُحدّث بما جرى بينه وبين المهدي. (أي لم ينله أذى).

• اعترضت امرأة المهديّ، فقالت: يا عصبة رسول الله ﷺ انظر في حاجتي، فقال المهدي: ما سمعتها من أحدٍ قط، اقضوا حاجتها، وأعطوها عشرة آلاف درهم.

• لما حصلت الخزائن في يد المهدي أخذ في ردّ المظالم، فأخرج أكثر الذخائر ففرّقها، وبرّ أهله ومواليه.

• رُفع صالح بن عبد القدوس البصري[1] إلى

---

(١) صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس الأزدي الجذامي، مولاهم، أبو الفضل: شاعر حكيم، كان متكلماً=

المهدي في الزندقة، فأراد قتله، فقال: أتوب إلى الله، وأنشده لنفسه:

ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ
ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه
حتى يوارى في ثرى رمسه

فصرفه، فلما قرب من الخروج ردّه، فقال: ألم تقل والشيخ لا يترك أخلاقه؟ قال: بلى، قال: فكذلك أنت لا تدع أخلاقك حتى تموت، ثم أمر بقتله.

• روى الحديث عن أبيه، وعن مبارك بن فضالة[1]،

= يعظ الناس بالبصرة، له مع أبي الهذيل العلاف مناظرات، وشعره كله أمثال وحكم وآداب، قيل: رؤي ابن عبد القدوس يصلي صلاة تامة الركوع والسجود، فقيل له: ما هذا ومذهبك معروف؟ قال: سنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والولد، عُمي في أواخر عمره، وقُتل لزندقته سنة ١٦٠هـ.

(١) مبارك بن فضالة بن أبي أمية، الحافظ المحدّث، الصادق، الإمام، أبو فضالة القرشي العدوي، مولى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، من كبار علماء البصرة، وله من الإخوة: عبد الرحمٰن، وعبيد الرحمٰن، ومُفَضَّل. ولد في أيام الصحابة. وصحب الحسن البصري، وهو حسن الحديث. واستشهد به البخاري في الصحيح، حديثه نحو المائتين، وتوفي سنة ١٦٥هـ.

حدَّث عنه يحيى بن حمزة[1]، وجعفر بن سليمان الضبعي[2]، ومحمد بن عبد الله الرقاشي، وأبو سفيان سعيد بن يحيى الحميري[3]. قال الذهبي: وما علمت فيه جرحاً ولا تعديلاً.

• قُدم على المهديّ بعشرة مُحدّثين: منهم فرج بن فضالة، وغياث بن إبراهيم ـ وكان المهديّ يحبّ الحمام ـ فلما أُدخل غياث، قيل له: حدّث أمير المؤمنين، فحدّثه عن فلان عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا سبق إلا في حافرٍ أو نصل»[4] وزاد فيه «أو جناح» فأمر

---

(١) يحيى بن حمزة بن واقد، الإمام، الثقة، أبو عبد الرحمٰن الحضرمي، مولاهم البتلهي (نسبة إلى بيت لهيا من أعمال دمشق بالغوطة) الدمشقي، قاضي دمشق: ولد سنة ١٠٨هـ، استعمله المنصور لما قدم دمشق سنة ١٥٣ على القضاء، وقال له: يا شاب، أرى أهل بلدك قد أجمعوا عليك، فإيّاك والهدية، وبقي على القضاء ثلاثين سنة، وتوفي سنة ١٨٣هـ، وكان ثبتاً في الحديث.

(٢) جعفر بن سليمان، الضبعي، البصري، أبو سليمان: كان ينزل في بني ضُبَيعة فنسب إليهم. احتجّ به مسلم، وتوفي سنة ١٧٨هـ.

(٣) سعيد بن يحيى الواسطي الحميري، أبو سفيان، أحد الثقات ولد سنة ١١٢هـ، وعاش تسعين سنة، وتوفي سنة ٢٠٢هـ، وثّقه أبو دامد.

(٤) عن أبي هريرة: (لا سبق إلا في خفٍّ أو حافرٍ أو نصل). رواه: أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد.

له المهدي بعشرة آلاف درهمٍ، فلما قام، قال المهدي: أشهد قفاك قفا كذاب، وإنما استجلبت ذلك، ثم أمر بالحمام فذبحت.

• أحاديث من رواية المهدي.

١" ـ قال الصولي: حدثني أحمد بن محمد بن صالح التمار، حدّثنا يحيى بن محمد القرشي، حدّثنا أحمد بن هشام، حدّثنا أحمد بن عبد الرحمٰن بن مسلم المدائني ـ وهو ثقة صدوق ـ قال: سمعت المهدي يخطب فقال: حدّثنا شعبة عن علي بن زيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبةً من العصر إلى مغيربان الشمس حفظها من حفظها، ونسيها من نسيها، فقال: (ألا إن الدنيا حلوة خضرة فربّ مُتخوِّصٍ في الدنيا ليس له يوم القيامة إلا النار)[1].

٢" ـ وقال الصولي: حدّثنا إسحاق بن إبراهيم القزار، حدّثنا إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدّثني أبو يعقوب بن حفص الخطابي، سمعت المهدي يقول: حدّثني أبي عن أبيه عن علي بن عبد الله بن

(١) رواه الحاكم عن حمنة بنت جحش.

عباس عن أبيه أن وفداً من العجم قدموا على رسول الله ﷺ ـ وقد أحفوا لحاهم وأعفوا شواربهم ـ فقال النبي ﷺ: (خالفوهم أعفوا لحاكم وأحفوا شواربكم) وإحفاء الشارب: أخذ ما سقط على الشفة منه، ووضع المهدي يده على أعلى شفته.

"٣" ـ وقال منصور بن مزاحم ومحمد بن يحيى بن حمزة عن يحيى بن حمزة، قال: صلى بنا المهدي المغرب فجهر بـ«بسم الله الرحمٰن الرحيم» فقلت: يا أمير المؤمنين ما هذا؟ قال: حدّثني أبي عن أبيه عن ابن إسحاق أن النبي ﷺ، جهر بـ«بسم الله الرحمٰن الرحيم» فقلت للمهدي: نأثِرُه عليك؟ قال: نعم. قال الذهبي: هذا إسناد متصل، لكن ما علمت أحداً احتجّ بالمهدي ولا بأبيه في الأحكام، تفرد به محمد بن الوليد مولى بني هاشم.

• وأُسند عن أبي عبيدة قال: كان المهدي يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها، فأُقيمت الصلاة يوماً، فقال أعرابي: لست على طُهْرٍ، وقد رغبت في الصلاة خلفك، فأُمر هؤلاء بانتظاري، فقال: انتظروه، ودخل المحراب، فوقف إلى أن قيل: قد جاء الرجل، فكبّر، فعجب الناس من سماحة أخلاقه.

• وأسند عن الأصمعي قال: سمعت المهدي على منبر البصرة يقول: إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنّى بملائكته فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾[1]، آثره بها من بين الرسل إذ خصكم بها من بين الأمم. قال: وهو أول من قال ذلك في الخطبة، وقد استسنها الخطباء إلى اليوم[2].

• وأسند عن إبراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه في نهر من أنهار البصرة، فقال: إن الأرض لله في أيدينا للمسلمين، فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه على كافتهم وفي مصلحتهم، فلا سبيل لأحدٍ عليه. فقال القوم: هذا النهر لنا بحكم رسول الله ﷺ، لأنه قال: (من أحيا أرضاً ميتةً فهي له) وهذه موات، فوثب المهدي عند ذكر النبي ﷺ حتى ألصق خده بالتراب، وقال: سمعت لما قال وأطعت، ثم عاد وقال: بقي أن تكون هذه الأرض مواتاً حتى لا أعترض فيها، وكيف تكون مواتاً والماء محيط بها من

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٦.

(٢) تاريخ الخلفاء.

جوانبها؟ فإن أقاموا البيّنة على هذا سلمت[1].

• وأسند عن مهدي بن سابق قال: صاح رجل بالمهدي وهو في موكبه:

قل للخليفة: حاتم لك خائن
فَخَفِ الإله واغْفِنا من حاتم
إن العفيف إذا استعان بخائنٍ
كان العفيف شريكه في المأثم

فقال المهدي: يعزل كل عاملٍ لنا يدعى حاتماً[2].

• وعُرِف بحبه الشديد لرسول الله ﷺ، فاستغلّ ذلك أحدهم ومعه نَعل، فقال: هذه نعل رسول الله ﷺ، قد أهديتها لك، فقال: هاتها، فناوله إيّاها، فقبّلها ووضعها على عينيه، وأمر له بعشرة آلاف درهم. فلما انصرف الرجل قال المهدي: والله إني لأعلم أن رسول الله ﷺ، لم ير هذه النَّعل، فضلاً عن أن يلبسها، ولكن لو رددته لذهب يقول للناس: أهديت إليه نعل رسول الله ﷺ، فردّها عليّ، فيصدقه الناس، لأن العامة تميل إلى أمثالها، ومن شأنهم نصر الضعيف على القوي

(١) تاريخ الخلفاء.

(٢) المصدر نفسه.

وإن كان ظالماً، فاشترينا لسانه بعشرة آلاف درهم، ورأينا هذا أرجح وأصلح[1].

• ذكروا أن المهدي كان قد أهدر دم رجلٍ من أهل الكوفة وجعل لمن جاء به مائة ألف، فدخل الرجل بغداد مُتنكّراً فلقيه رجل فأخذ بمجامع ثوبه ونادى: هذا طلبة أمير المؤمنين، وجعل الرجل يريد أن ينفلت منه فلا يقدر، فبيناهما يتجاذبان وقد اجتمع الناس عليهما، إذ مرّ أمير في موكبه ـ وهو معن بن زائدة ـ فقال الرجل: يا أبا الوليد خائف مستجير. فقال معن: ويلك مالك وله؟ فقال: هذا طلبة أمير المؤمنين، وجعل لمن جاء به مائة ألف. قال معن: أما علمت إني قد أجرته؟ أرسله من يديك، ثم أمر بعض غلمانه فترجّل وأركبه وذهب به إلى منزله، وانطلق ذلك الرجل إلى باب الخليفة وأنهى إليهم الخبر، فبلغ المهدي فأرسل إلى معن فدخل عليه فسلّم فلم يردّ عليه السلام، وقال: يا معن أبلغ من أمرك أن تُجير عليَّ؟ قال: نعم. قال: ونعم أيضاً، قال: نعم قد قتلتُ في دولتكم أربعة آلاف مصلٍ فلا يجار لي رجل واحد؟ فأطرق المهدي ثم رفع رأسه إليه وقال: قد أجرنا من أجرت يا معن، فقال: يا

(١) البداية والنهاية، ابن كثير.

أمير المؤمنين إن الرجل ضعيف، فأمر له بثلاثين ألفاً. فقال: إن جريمته عظيمة، وإن جوائز الخلفاء على قدر جرائم الرعية، فأمر له بمائة ألف، فجُعلت بين يدي معن إلى ذلك الرجل، فقال له معن: خذ المال، وادعُ لأمير المؤمنين، وأصلح نيتك في المستقبل[1].

• دخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم، ففرَّقها ابن الخياط وأنشأ يقول:

أخذت بكفي كفّه أبتغي الغنى
ولم أدرِ أن الجود من كفّه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى
أفدت، وأعداني فبدّدت ما عندي

فبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً[2].

• قدم أعرابي ومعه كتاب مختوم فجعل يقول: هذا كتاب أمير المؤمنين إليَّ، أين الرجل الذي يُقال له: الربيع الحاجب؟ فأخذ الكتاب منه وجاء به إلى الخليفة، وأوقف الأعرابي وفتح الكتاب فإذا قطعة أديم فيها كتابة ضعيفة، والأعرابي يزعُم أن هذا خط الخليفة، فتبسَّم

(١) البداية والنهاية، ابن كثير.
(٢) المصدر السابق نفسه.

المهديّ وقال: صدق الأعرابي، هذا خطي، إني خرجت يوماً إلى الصيد فضعت عن الجيش، وأقبل الليل، فتعوّذت بتعويذ رسول الله ﷺ فرُفع لي نار من بعيدٍ فقصدتها، فإذا هذا الشيخ وامرأته في خباءٍ يوقدان ناراً، فسلّمت عليهما فردّا السلام، وفرش لي كساءً، وسقاني مذقة لبنٍ مشوبٍ بماءٍ، فما شربت شيئاً إلا وهي أطيب منه، ونمت على تلك العباءة، ما أذكر أني نمت أحلى منها. فقام إلى شويهةٍ له فذبحها، فسمعتُ امرأته تقول له: عدت إلى مكسبتك ومعيشة أولادك فذبحتها، هلكت نفسك وعيالك، فما التفت إليها، واستيقظت فاشتويت من لحم تلك الشويهة، وقلت له: أعندك شيء أكتب لك فيه كتاباً؟ فأتاني بهذه القطعة، فكتبت له بعودٍ من ذلك الرماد خمسمائة ألفٍ وإنما أردت خمسين ألفاً، والله لأُنفذنّها له كلها، ولو لم يكن في بيتي سواها، فأمر له بخمسمائة ألفٍ فقبضها الأعرابي واستمرّ مقيماً في ذلك الموضع في طريق الحاج من ناحية الأنبار، فجعل يُقري الضيف ومن مرّ به من الناس، فعُرف منزله بمنزل مضيف أمير المؤمنين المهدي[١].

● أوصى ابنه موسى بمتابعة الزنادقة وقتلهم.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

الفصل السّادس

وِلايَةُ العَهْدِ وَوَفَاةُ المهْدِيّ

كانت ولاية عهد أبي جعفر المنصور لعيسى بن موسى غير أن المنصور قد قدّم عليه بمختلف الحيل والأساليب ولده محمد المهدي، وجعل عيسى بن موسى ولي عهد محمد المهدي، وأخذ عيسى مقابل موافقته أو سكوته مبلغاً ضخماً من المال.

ولاية العهد:

ولما أفضى الأمر إلى المهدي سأل عيسى أن يخرج من الأمر فامتنع عليه، فأراد الإضرار به، فولّى على الكوفة روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، فولّى على شُرَطه خالد بن يزيد بن حاتم، وكان المهدي يحبّ أن يحمل روح على عيسى بعض الحمل فيما لا يكون به عليه حُجّة، وكان لا يجد إلى ذلك سبيلاً، وكان عيسى قد خرج إلى ضيعةٍ له بالرحبة،

فكان لا يدخل الكوفة إلا في شهرين من السنة في شهر رمضان، فيشهد الجُمَع والعيد ثم يرجع إلى ضيعته، وفي أول ذي الحجة، فإذا شهد العيد رجع إلى ضيعته، وكان إذا شهد الجمعة أقبل من داره على دوابه حتى ينتهي إلى أبواب المسجد فينزل على عتبة الأبواب، ثم يصلي في موضعه، فكتب روح إلى المهدي أن عيسى بن موسى لا يشهد الجمع، ولا يدخل الكوفة إلا في شهرين من السنة، فإذا حضر أقبل على دوابه حتى يدخل رحبة المسجد، وهو مصلى الناس، ثم يتجاوزها إلى أبواب المسجد، فتروث دوابه في مصلى الناس، وليس يفعل ذلك غيره. فكتب إليه المهدي أن اتّخذ على أفوه السِّكك التي تلي المسجد خشباً ينزل عنده الناس، فاتّخذ روح ذلك الخشب في أفواه السِّكك ـ فذلك الموضع يسمى الخشبة ـ وبلغ ذلك عيسى بن موسى قبل يوم الجمعة، فأرسل إلى ورثة المختار بن أبي عبيد ـ وكانت دار المختار لزيقة المسجد ـ فابتاعها وأثمن بها، ثم إنه عمّرها واتّخذ فيها حماماً، فكان إذا كان يوم الخميس أتاها فأقام بها، فإذا أراد الجمعة ركب حماراً فدبّ به إلى باب المسجد فصلّى من ناحِيةٍ، ثم رجع إلى داره. ثم أوطن الكوفة وأقام بها، وألحّ المهدي على عيسى فقال: إنك لم تجبني إلى أن

تنخلع منها حتى أبايع لموسى وهارون استحللت منك بمعصيتك ما يستحلّ من العاصي، وإن أجبتني عوَّضتك منها ما هو أجدى عليك وأعجل نفعاً فأجابه فبايع لهما، وأمر له بعشرة آلاف ألف درهمٍ ـ ويقال عشرين ألف ألف ـ وقطائع كثيرة.

وقيل: إن المهدي لما همّ بخلع عيسى بن موسى كتب إليه يأمره بالقدوم عليه، فأحسّ بما يُراد به، فامتنع من القدوم عليه، حتى خيف انتفاضه، فأنفذ إليه المهدي عمه العباس بن محمد، وكتب إليه كتاباً، وأوصاه بما أحبّ أن يُبلغه، فقدم العباس على عيسى بكتاب المهدي ورسالته إليه، فانصرف إلى المهدي بجوابه في ذلك، فوجّه إليه بعد قدوم العباس عليه محمد بن فرّوخ أبا هريرة القائد في ألف رجلٍ من أصحابه من ذوي البصيرة، فراغ ذلك عيسى بن موسى روعاً شديداً، ثم دخل عليه أبو هريرة، فأمره بالشخوص، فاعتلّ بالشكوى فلم يقبل ذلك منه، وأشخصه من ساعته إلى مدينة السلام.

فلما قدم عيسى بن موسى مع أبي هريرة يوم الخميس لستٍّ خلون من المحرم سنة ستين ومائة نزل داراً كانت لمحمد بن سليمان على شاطئ دجلة في

عسكر المهدي، فأقام أياماً يختلف إلى المهدي، ويدخل مدخله الذي كان يدخله، لا يُكلّم بشيء، ولا يرى جفوةً ولا مكروهاً ولا تقصيراً به، حتى أنس به بعض الأُنس، ثم حضر الدار يوماً قبل جلوس المهدي، فدخل مجلساً كان للربيع بن يونس في مقصورةٍ صغيرةٍ، وعليها باب، وقد اجتمع نفر في ذلك اليوم على خلعه والوثوب عليه، ففعلوا ذلك وهو في المقصورة التي فيها مجلس الربيع، فأغلق دونهم المقصورة، فضربوا الباب، وكادوا يكسرونه، وشتموه أقبح الشتم، وحصروه هنالك، وأظهر المهدي إنكاراً لما فعلوا، فلم يردعهم ذلك عن فعلهم، بل شدّوا في أمره، إلى أن كاشفه ذوو الأسنان من أهل بيته بحضرة المهدي، فأبوا إلا خلعه، وشتموه في وجهه، وكان أشدّهم عليه محمد بن سليمان.

فلما رأى المهدي ذلك من رأيهم وكراهتهم لعيسى وولايته، دعاهم إلى العهد لولده موسى، فصار إلى رأيهم وموافقتهم، وألحّ على عيسى في إجابته وإياهم إلى الخروج مما له من العهد في أعناق الناس وتحليلهم منه، فأبى، وذكر أن عليه أيماناً محرجةً في ماله وأهله، فأحضر له من الفقهاء والقضاة عدةً، فأتوا

بما رأوا، وصار إلى المهدي ابتياع ماله من البيعة في أعناق الناس بما يكون له فيه رضىً وعوض، مما يخرج له من ماله لما يلزمه من الحنث في يمينه، وهو عشرة آلاف ألف درهم، وضياع بالزاب الأعلى وكسكر. فقبل ذلك عيسى، وبقي منذ فاوضه المهدي على الخلع إلى أن أجاب محتسباً عنده في دار الديوان من الرصافة إلى أن صار إلى الرضا بالخلع والتسليم، وإلى أن خلع يوم الأربعاء لأربعٍ بقين من المحرم بعد صلاة العصر سنة ستين ومائة، فبايع للمهدي ولموسى الهادي من بعده من الغد يوم الخميس لثلاثٍ بقين من المحرم لارتفاع النهار، ثم أَذِن المهديّ لأهل بيته، وهو في قُبَّةٍ كان محمد بن سليمان أهداها له مضروبة في صحن الأبواب، ثم أخذ بيعتهم رجلاً رجلاً لنفسه ولموسى بن المهديّ من بعده، حتى أتى إلى آخرهم. ثم خرج إلى مسجد الجماعة بالرصافة فقعد على المنبر، وصعد موسى حتى كأنه دونه، وقام عيسى على أول عتبة من المنبر، فحمد الله المهديُّ وأثنى عليه، وصلى على النبيّ ﷺ، وأخبر بما أجمع عليه أهل بيته وشيعته وقواده وأنصاره وغيرهم من أهل خراسان من خلع عيسى بن موسى وتصيير الأمر الذي كان عُقد له في أعناق الناس لموسى ابن أمير المؤمنين لاختيارهم له

ورضاهم به، وما رأى من إجابتهم إلى ذلك، لما رجا من مصلحتهم وإلفتهم، وخاف مخالفتهم في نيّاتهم واختلاف كلمتهم، وأن عيسى قد خلع تقدّمه، وحللهم مما كان له من البيعة في أعناقهم، وأن ما كان له من ذلك فقد صار لموسى ابن أمير المؤمنين، بعقدٍ من أمير المؤمنين وأهل بيته وشيعته في ذلك، وأن موسى عامل فيهم بكتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ بأحسن السيرة وأعدلها، فبايعوا معشر من حضر، وسارعوا إلى ما سارع إليه غيركم، فإن الخير كله في الجماعة، والشرّ كله في الفرقة، وأنا أسأل الله لنا ولكم التوفيق برحمته، والعمل بطاعته وما يرضيه، واستغفر الله لي ولكم.

وجلس موسى دونه معتزلاً للمنبر، لئلا يحول بينه وبين من صعد إليه يبايعه، ويمسح على يده، ولا يستر وجهه، وثبت عيسى قائماً في مكانه، وقرئ عليه كتاب ذكر الخلع له، وخروجه مما كان إليه من ولاية العهد وتحليله جماعة من كان في عنقه بيعة، مما عقدوا له في أعناقهم، وأن ذلك من فعله وهو طائع غير مُكرهٍ، راضٍ غير ساخطٍ، محبّ غير مجبرٍ، فأقرَّ عيسى بذلك، ثم صعد فبايع المهديّ، ومسح على يده، ثم انصرف، وبايع أهل بيت المهديّ على أسنانهم، يبايعون

المهديّ ثم موسى، ويمسحون على أيديهما، حتى فرغ آخرهم، وفعل من حضر من أصحابه ووجوه القواد والأعوان مثل ذلك، ثم نزل المهدي، فصار إلى منزله، ووكّل ببيته من بقي من الخاصة والعامة خاله يزيد بن منصور، فتولّى ذلك حتى فرغ من جميع الناس، ووفّى المهدي لعيسى بما أعطاه وأرضاه مما خلع منه من ولاية العهد، وكتب عليه بخلعه إياه كتاباً أشهد عليه فيه جماعة أهل بيته وصحابته وجميع أعوانه، وكُتّابه وجنده في الدواوين، ليكون حجةً على عيسى، وقطعاً لقوله ودعواه فيما خرج منه.

وهذه نسخة الشرط الذي كتبه عيسى على نفسه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين ولولي عهد المسلمين موسى بن المهدي، ولأهل بيته وجميع قواده وجنوده من أهل خراسان وعامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وحيث كان كائن منهم، كتبته للمهدي محمد أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي، فيما جعل إليه من العهد إذ كان إليّ، حتى اجتمعت كلمة المسلمين، واتّسق أمرهم، وائتلفت أهواؤهم، على الرضا بولاية موسى بن

المهدي محمد أمير المؤمنين، وعرفت الخط في ذلك عليّ والخط فيه لي، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون من الرضا بموسى ابن أمير المؤمنين، والبيعة له، والخروج مما كان لي في رقابهم من البيعة، وجعلتكم في حلٍّ من ذلك وسعةٍ، من غير حرجٍ يدخل عليكم، أو على أحدٍ من جماعتكم وعامة المسلمين، وليس في شيءٍ من ذلك، قديم ولا حديث لي دعوى ولا طلبة ولا حجّة ولا مقالة ولا طاعة على أحدٍ منكم، ولا على عامة المسلمين ولا بيعة في حياة المهدي محمد أمير المؤمنين ولا بعده ولا بعد ولي عهد المسلمين موسى، ولا ما كنت حياً حتى أموت. وقد بايعت لمحمد المهدي أمير المؤمنين ولموسى ابن أمير المؤمنين من بعده، وجعلت لهما ولعامة المسلمين من أهل خراسان وغيرهم الوفاء بما شرطت على نفسي في هذا الأمر الذي خرجت منه، والتمام عليه، عليّ بذلك عهد الله وما اعتقد أحد من خلقه من عهدٍ أو ميثاقٍ أو تغليظٍ أو تأكيدٍ على السمع والطاعة والنصيحة للمهديّ محمد أمير المؤمنين وولي عهده موسى ابن أمير المؤمنين، في السر والعلانية، والقول والفعل، والنيّة والشدّة والرجاءِ والسرّاء والضرّاء والموالاة لهما ولمن والاهما، والمعاداة لمن عاداهما، كائناً من كان في

هذا الأمر الذي خرجت منه، فإن أنا نكبت[1] أو غيّرت أو بدّلت أو دغلت[2] أو نويت غير ما أعطيت عليه هذه الأيمان، أو دعوت إلى خلاف شيءٍ مما حملت على نفسي في هذا الكتاب للمهدي محمد أمير المؤمنين ولولي عهده موس ابن أمير المؤمنين ولعامة المسلمين، أو لم أفِ بذلك؛ فكل زوجة عندي يوم كتبت هذا الكتاب ـ أو أتزوجها إلى ثلاثين سنةً ـ طالق ثلاثاً ألبتة[3] طلاق الحرج[4]، وكل مملوكٍ عندي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنةً أحرار لوجه الله، وكل مالٍ لي نقد أو عرض[5] أو قرض أو أرض أو قليل أو كثير، تالد[6] أو طارف[7]، أو أستفيد منه فيما بعد اليوم إلى ثلاثين سنةً صدقة على المساكين، يضع ذلك الوالي حيث يرى، وعليّ من مدينة السلام المشي حافياً إلى بيت الله العتيق الذي بمكة نذراً واجباً ثلاثين سنةً، لا

---

(١) نكبت: عدلت.
(٢) دغلت: دخلت فيه دخول المريب.
(٣) البتة: لا رجعة فيه.
(٤) الحرج: التحريم.
(٥) عرض: متاع.
(٦) التالد والتليد: المال الموروث.
(٧) الطارف والطريف: المال المكتسب.

كفارة لي ولا مخرج منه، إلا الوفاء به. والله على الوفاء بذلك راعٍ كفيل شهيد، وكفى بالله شهيداً، وشهيد على عيسى بن موسى بإقراره بما في هذا الشرط أربعمائةٍ وثلاثون من بني هاشم ومن الموالي والصحابة من قريش والوزراء والكتاب والقضاة.

وكتب في صفر سنة ستين ومائة. وختم عيسى بن موسى[١].

لما عقد المهدي العهد لولده موسى قال مروان بن أبي حفصة[٢]:

عقدت لموسى بالرصافة بيعةً
شدّ الإله بها عُرى الإسلام
موسى الذي عرفت قريش فضله
ولها فضيلتها على الأقوام

(١) تاريخ الطبري.

(٢) مروان بن أبي حفصة: مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: ولد سنة ١٠٥هـ، وهو شاعر عالي الطبقة. كان جده أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أعتقه يوم الدار، ونشأ مروان في العصر الأموي باليمامة حيث منازل أهله، وأدرك زمناً من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروةً وكان رسم بني العباس أن يعطوه بكل بيتٍ يمدحهم به ألف درهم. توفي ببغداد سنة ١٨٢هـ.

بـمـحـمـدٍ بـعـد الـنـبـيّ مـحـمـدٍ
حـيـيَ الـحـلال ومـات كـلّ حـرام
مـهـدي أُمّـتـه الـذي أمـسـت بـه
لـلـذلّ آمـنـةً ولـلإ عـدام
موسى ولـي عـهـد الـخـلافـة بـعـده
جـفّـت بـذاك مـواقـع الأقـلام

وقال آخر:

يـا ابـن الـخـلـيـفـة إن أُمّـة أحـمـد
تـاقـت إلـيـك بـطـاعـةٍ أهـواؤهـا
ولـتـمـلأنّ الأرض عـدلاً كـالـذي
كـانـت تُـحـدِّث أُمَّـةَ عـلـمـاؤهـا
حـتّـى تـمـنّـى لـو تـرى أمـواتـهـا
من عدل حكمك ما ترى أحياؤها
فعلى أبيك اليوم بهجة ملكها
وغـداً عـلـيـك إزارهـا ورداؤهـا[1]

وفي سنة ستٍ وستين ومائة وبعد عودة هارون بن المهدي في غزوة في بلاد الروم ووصوله إلى خليج قسطنطينية أخذ المهديّ على قواده البيعة لهارون بعد

(١) تاريخ الخلفاء.

موسى بن المهدي وسمّاه هارون الرشيد.

وعزم المهديّ في آخر أمره على تقديم هارون ابنه على ابنه الآخر موسى الهادي، وبعث إليه وهو بـ(جرجان) بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة، ويُقدّم الرشيد فلم يفعل، فبعث إليه بعض الموالي، فامتنع عليه موسى من القدوم، وضرب الرسول، فخرج المهديّ بسبب موسى، وهو بـ(جرجان) فجاءه الأجل.

وفاة المهدي:

كانت وفاة المهديّ في (ماسبذان) ليلة الخميس لثمانٍ بقين من المحرم سنة تسعٍ وستين ومائة، فكانت خلافته عشر سنواتٍ وشهراً ونصف الشهر، وكان عمره يوم وفاته ثلاثاً وأربعين سنةً. وصلّى عليه ابنه هارون. ولم توجد له جنازة يُحمل عليها، فحُمل على باب.

ويقول بكار بن رباح:

ألا رحمة الرحمن في كل ساعةٍ
على رمَّةٍ رَمّت بماسبذان
لقد غيَّب القبر الذي ضمّ سوددا
وكفّين بالمعروف تبتدران

وقال سَلْم الخاسر[1] يرثيه:

وباكيةٍ على المهديّ عبرى
كأنّ بها وما جُنَّت جنونا
وقد خَمَشَتْ محاسنها وأبدت
غدائرها وأظهرت القرونا
لئن بلي الخليفة بعد عزٍّ
لقد أبقى مساعِيَ ما بلينا
سلام الله عدّة كلّ يومٍ
على المهديّ حين ثوى رهينا
تركنا الدين والدنيا جميعاً
بحيث ثوى أمير المؤمنينا

ويروى أن المهدي قد رأى في النوم، وهو بقصره ببغداد المسمّى بقصر السلامة، ويقال: إنه سمع هاتفاً يقول:

(١) سَلْم الخاسر: سَلْم بن عمرو بن حماد: شاعر ماجن من أهل البصرة، من الموالي، سكن بغداد، له مدائح في المهدي والرشيد، وأخبار مع بشار بن برد وأبي العتاهية، وشعره رقيق رصين. قيل: سُمي الخاسر، لأنه باع مصحفاً واشترى بثمنه طنبوراً. مات ١٨٦هـ.

كأني بهذا القصر قد باد أهله
وأوحش منه ربعه ومنازله
وصار عميد القوم من بعد بهجة
وملكٍ إلى قبرٍ عليه جنادله
ولم يبق إلا ذكره وحديثه
تنادى عليه معولاتٍ حلائله

فما عاش بعدها إلا عشراً حتى مات.

وروي أنه لما قال له الهاتف:

كأني بهذا القصر قد باد أهله
وأوحش منه ربعه ومنازله

أجابه المهدي:

كذاك أمور الناس يبلى جديدها
وكل فتىً يوماً ستُبلى فعائله

فقال الهاتف:

تزوّد من الدنيا فإنّك ميّت
وإنك مسؤول فما أنت قائله

فأجابه المهدي:

أقول بأن الله حقّ شهدته
وذلك قول ليس تحصى فضائله

فقال الهاتف:

تـزوّد مـن الـدنـيـا فـإنّـك راحـل
وقـد أزِف الأمـر الـذي بـك نـازل

فأجابه المهدي:

متى ذاك؟ خبرني هديت فإنني
سأفعل ما قلت لي وأعاجله

فقال الهاتف:

تلبث ثلاثاً بعد عشرين ليلةً
إلى منتهى شهرٍ وما أنت كامله[1]

ولما علم أبو العتاهية بموت الخليفة محمد المهدي، إذ رأى المسوح على قُبّة الجارية حَسنة، قال في ذلك:

رحـن فـي الـوشـي وأصـبـحـ
ـن عـلـيـهـنّ الـمُـسُـوح
كـلّ نـطّـاحٍ مـن الـدهْـ
ـر لـه يـوم نـطـوح
لـسـت بـالـبـاقـي ولـو عُـمْـ
ـمِـرت مـا عُـمّـر نـوح

(١) البداية النهاية، ابن كثير.

فـسـعـــلـــى نـــفـــســـك نُـــحْ إن

كـــنـــت لا بـــــدّ تــــنــــوح

كان محمد المهديّ قد اشترى جاريةً بربريةً اسمها الخيزران، وقد أنجبت له موسى الهادي سنة سبعٍ وأربعين ومائة، ثم أنجبت هارون الرشيد سنة ثمانٍ وأربعين ومائة. وقد أعتق المهديّ الخيزران سنة تسع وخمسين ومائة وتزوّجها.

وتزوج محمد المهديّ سنة تسعٍ وخمسين ومائة ابنة عمّ أبيه أم عبد الله بن صالح بن عليّ.

وتزوج المهديّ سنة ستين ومائة أثناء إقامته بالمدينة المنورة رقيةَ بنت عمرو العثمانية نسبة إلى جدّها عثمان بن عفان، رضي الله عنه.

الباب الثاني

موسى الهادي

١٦٩ - ١٧٠هـ





الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله وعلى إخوانه أنبياء الله وعلى آله وصحبه أجمعين، *أما بعد* :

فإن الخليفة العباسي الرابع موسى بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس لم تدم خلافته سوى سنةٍ وشهرين وهي مدة قصيرة في تاريخ الزمن، كما لم تقع في أيام خلافته أحداث جسيمة تُلفت الانتباه وتشدّ النظر وتكون هدفاً للمستبصر ومحطاً للمستقصي لذا لم تُوجّه إليه سهام مسمومة، ولم تُسلّط عليه قذائف الافتراءات وطلقات الإشاعات، كغيره ممن طالت مدة خلافتهم أو كثرت الأحداث في أيامهم أو عُرفوا بأعمالهم الخيِّرة أو فتوحاتهم وجهادهم، وإن كان الأمر لا يخلو من ضرباتٍ هامشيةٍ هكذا يحسبونها وإن كانت في الواقع لكبيرة ألا وهي الإدمان على الشراب، والغريب أن يقبل هذا أحد أو يُصدّقه إنسان، ففي هذا العصر المتأخّر الذي انصرف فيه كثير من الناس عن

الإسلام، وتخلّى كثيرون عن المبدأ، وارتكبوا المخالفات، وانحرفوا عن الصراط لا نجد مسؤولاً يجاهر بالإدمان، أو يمدحه شاعر بالشراب أو يُثني عليه نديم من ندمائه بالغرام بجواريه أو بالطرب لمغنّياته أو بالغزل بفتياته، إذا كان هذا لا يوجد في هذا العصر الذي نحن أدرى وأعلم بمزاياه فهل يمكن أن يوجد في تلك العصور القريبة من القرون الموصوفة بالخيرية حيث يعتصم المسؤول بالإسلام، ويقوّم حسب استمساكه به، وهو يفخر بذلك، لا أعتقد أن أحداً يمكن أن يُصدّق ما كان يُشاع عن أولئك الخلفاء، أو ما كانوا يُرمون به من الأعداء، في سبيل الطعن بالخلفاء الذين هم رأس المجتمع الإسلامي، فإذا كان الرأس هذا شأنه وهذا أمره فكيف هي حالة المجتمع الذي يأخذ من رأسه، ويتأسّى به، وينهل من نبعه.

والخليفة يُمثّل الإسلام، حيث يسير على منهجه، ويُطبّق شرعه ويلتزم بحدوده، ويُدافع عن حماه، ويعمل على الدعوة له، ويسعى لنشره، ويقود المجاهدين لذلك، ويكون على رأسهم في كل ميدانٍ، وعلى هذا يكون الخليفة أول الملتزمين بالأحكام، فإذا كان هو نفسه قد تجرّأ على الأحكام، وتجاوز الحدود، وتخطّى

الشرائع، وتعدّى على الأصول، وانتهك الحرمات، ووقع في الحرام، وتمرّغ في المنكرات بل وجاهر في ذلك رافع الرأس، متباهٍ في عمله فمن الذي يستمسك بالإسلام وكلهم للخليفة مُقلّدون وله مُتّبعون، فالمبادئ إذن ليست سوى نظرياتٍ مثاليةٍ تدوّن بالقراطيس، ويُدعى لها بالكلام، ويُخطب بها على المنابر، ويُنادى بها في الاجتماعات، هذا ما يريده الأعداء من متلوّنين ومن سافرين عن وجوههم يُصرّحون بالعداوة ويُعلنون الخلاف. وهم بهذا يعملون على الهدم يوم كانوا يشيعون الباطل ويفترون الكذب برواياتهم، وشعرهم، وادعاءاتهم حيث يختلف المسلمون، وينقسمون، ويضعف أمرهم ويتمنّى الأعداء أن ينتصروا بعد ذلك على المسلمين، كما تدخل شوائب في العقيدة، وتنمو فطريات، وتظهر طفيليات يكون لها الأثر في المستقبل حسب تصوّر الأعداء. كما يظهر في المستقبل بين المسلمين أنفسهم من يضرب صفحاً عن التاريخ الإسلامي، وما كان فيه من خيرٍ وهدىً وإنقاذٍ من الظلمات وإخراجٍ إلى النور لمن اتَّبع الإسلام واهتدى بهديه، وما كان فيه من دعوة إلى الخير إلى الناس جميعاً. فالحمد لله الذي أعزّ دينه ونصر جنده وردّ كيد الظالمين المعتدين.

فنرجو من الله أن نُوفّق بإعطاء صورةٍ صادقةٍ عن الخليفة موسى الهادي تتناسب معلوماتها مع المدة القصيرة التي قضاها في الخلافة حيث لا يُقدّم الوقت القليل سوى معلوماتٍ يسيرةٍ، وربما تكون أحياناً متداخلةً مع رواياتٍ لا تمتّ إلى الحقيقة بصلةٍ، صاغها أهل الأهواء ونسج خيوطها الأعداء زوراً وافتراء.

كما نرجو أن يكون عملنا خالصاً لله، ونيّاتنا صادقةً، ودعاؤنا مستجاباً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمود شاكر

الفصل الأول

الهادي قبل الخلافة

ولد موسى الهادي بالريّ[1] سنة سبعٍ وأربعين ومائة. وقد اعتنت به وبأخيه هارون أمهما الخيزران، اهتمت بهما كأبناءٍ لها أولاً، وعسى أن يصل أحدهما أو كلاهما إلى الخلافة فتكون لها المكانة كأمٍ للخليفة على حين أنها جارية اشتُريت من نخّاسٍ، وربما يعتقها مولاها ويتزوّجها فتكون السيدة صاحبة الكلمة بعد حياةٍ قضتها بين الجواري وإن كانت تمتاز عنهن بعض الشيء بجمالٍ في خَلْقها وحياءٍ من خُلُقها وأنوثةٍ بفطرتها، ونباهةٍ من طبعها لذا فضّلها مولاها المهديّ على غيرها من جواريه.

استفاد موسى بن محمد المهديّ من هذه التربية

---

(١) الريّ: مدينة كانت مشهورة قديماً، وموقعها مكان مدينة طهران اليوم.

ومن تلك العناية فظهرت عليه النباهة وبدت عليه الفصاحة وتمثّلت به بعض جوانب الوعي رغم صغر سنه وقلّة احتكاكه بالآخرين إذ لا يزال ابن جاريةٍ وأبوه في شغلٍ عنه وبُعدٍ عن مجالسته والاهتمام به، إذ أن المهدي كان ولي عهدٍ، وقد وصل إليه هذا المنصب بعد مساوماتٍ تخلّلها الجهد ومفاوضاتٍ صاحبها التهديد ومحاولاتٍ أعقبها الدفع والتسديد، فالمهدي بعد أن نال هذا المنصب يريد أن يُظهر الجدارة ويُعطي علامات الإمارة ويُبدي المهارة ويُعوّض الخسارة.

وتوفي أبو جعفر المنصور، وتولّى محمد المهديّ الخلافة، ومرّت مرحلة التسلّم وانتهاء التعازي وتلقي التهاني، ومراقبة تصريف الأمور، ومحاولة التعوّد عليها، والاستماع إلى المقرّبين ونصائح كبار رجال الأسرة التفت بعدها إلى ولديه فرأى تفتّحاً ونبوغاً ووعياً وطموحاً وعقلاً يفوق عقول أترابهما فتدخّلت عاطفة الأبوة ودعمتها رغبات الأم وحنانها والمحاولات المستمرة من الخلف، والأحاديث التي لا تنقطع، والكلام الذي ما ينفكّ يجري على اللسان، والتشجيع، والآمال والأماني.

أثّرت كثرة الحديث، ولعبت العواطف، وكبرت

الجارية في عين مولاها وحصدت النتائج فحصلت على العتق ونالت الصفة الزوجية سنة تسعٍ وخمسين ومائة ولم يستدر العام بعد على خلافة مولاها المهديّ، وهذا أول الحصاد وتلاه شعور موسى وهارون ولديهما بارتفاع مكانة أمهما وبالتالي أصبحا ولدي حُرَّةٍ كريمةٍ ونجلي خليفةٍ شريفٍ فأحسّا بسمو المكانة وتفتّحت عيونهما للمستقبل الزاهر والأمل الباهر.

جالت الخواطر في ذهن الخليفة المهدي ودفعتها العاطفة وشحنتها الآمال وتذكّر فعل والده المنصور في تأخير عيسى بن موسى بولاية العهد، وتقديمه عليه، وها هو قد تسلّم الخلافة وبقي عيسى بن موسى ولياً لعهده، فأحبّ محمد المهدي أن يفعل ما فعل أبوه فيؤخّر عيسى بن موسى مرةً أخرى ويُقدّم عليه ولده موسى الهادي بن محمد المهدي.

بدأ المهدي بتنفيذ ما عزم عليه فطلب من عيسى أن يخرج من الأمر من نفسه فامتنع عليه، فأراد المهدي الإضرار به، فاعتزل عيسى في ضيعةٍ له بالرحبة، فكان لا يدخل الكوفة إلا في شهرين من العام وهو شهر رمضان وذي الحجة، ويشهد الجُمَع ثم يرجع إلى ضيعته، ولكن المهدي هدّده أخيراً إن لم ينخلع من

ولاية العهد حتى يتمكن الخليفة من البيعة لموسى وهارون، ثم أغراه وعوّضه بعشرة آلاف ألف درهم، وقطائع كثيرة. وهكذا خلع عيسى بن موسى نفسه من ولاية العهد، وأصبح موسى بن محمد المهدي ولياً للعهد، ومن بعده أخوه هارون، وذلك سنة ستين ومائة.

بدأ الشعور بالمسؤولية يبدو على أصحاب العلاقة وربما كان ذلك محاولة إظهار الأهلية لما عُهد إليهما، وفي الوقت نفسه كان الخليفة يريد أن يدرّب ولديه على ما آل إليهما من عمل. ففي سنة ثلاثٍ وستين ومائة جعل المهدي ولده هارون على رأس الصائفة التي ستغزو بلاد الروم والمسؤول عنها مع العلم أن عمره كان يومذاك خمس عشر سنةً. وسار المهدي مُشيّعاً لابنه حتى قطع الدرب ووصل إلى جيحان حيث ودّعه هناك، وكان قد استخلف ولده موسى على دار السلام مكانه حين خرج مع هارون. كما غزا هارون الروم سنة خمسٍ وستين ومائة، ووصل إلى خليج القسطنطينية متوغّلاً في بلاد الروم، وقد انهزموا أمامه ثم جرى الصلح بين الطرفين، ودفع الروم الفدية والجزية، ووُقّع الصلح على قيام هدنةٍ لمدة ثلاث سنواتٍ بين الطرفين، ولكن نُقِضت من قبل الروم. وخرج موسى بن محمد

المهدي إلى جرجان سنة ستٍ وستين ومائة وعلى قضائه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة. وكان خروج موسى إلى جرجان لقتال صاحبيْ طبرستان. فجهّز موسى الجند لحرب طبرستان وأمّر عليهم يزيد بن مزيد، وتمّ النصر على الخارجين في طبرستان.

رأى الخليفة المهدي ميزاتٍ في ولده الرشيد تفوق ما لاحظه في ولده الآخر موسى فعزم على تقديم هارون في ولاية العهد على موسى رغم أن موسى أكبر سناً من هارون، فبعث المهدي إلى موسى وهو بجرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعة، ويُقدّم الرشيد، فلم يفعل موسى وأبى القدوم على أبيه. فعاد المهديّ فبعث بعض الموالي إلى موسى ليقدم إلى دار السلام، فامتنع عليه موسى، وضرب الرسول، فخرج المهدي إلى جرجان يريد موسى، فجاءه الأجل وهو في طريقه إليه وذلك سنة تسعٍ وستين ومائة، وبقي موسى الهادي ولياً للعهد.



الفصل الثاني

خلافة موسى الهادي

توفي المهدي في شهر المحرم سنة تسعٍ وستين ومائة، وكانت وفاته بـ(ماسبذان) ومعه ابنه هارون، أما موسى فكان مقيماً بـ(جرجان) يُحارب أهل طبرستان، أما بغداد فكان فيها حاجب المهدي الربيع بن يونس.

اجتمع القادة والموالي الذين كانوا مع المهدي حول هارون، وقالوا له: إن علم الجند بوفاة الخليفة لم تأمن شغبهم إن لم تُحقّق لهم طلباتهم التي قد تكون عزيزةً، أو قد تعجز عن تأمينها فالرأي أن يُنادى بالجند للعودة إلى بغداد، ثم يُحمل الخليفة إلى بغداد حيث يُواري فيها.

أمر هارون بدعوة يحيى بن خالد البرمكي إليه ـ وكان المهدي قد ولّى ابنه هارون المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية، وأمر يحيى بن خالد البرمكي أن

يتولّى ذلك، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولّى منها إلى أن توفي ـ فصار يحيى بن خالد إلى هارون فقال له: يا أبت ما تقول فيما يقول عمر بن بزيع ونصير والمفضّل؟ قال: وما قالوا؟ فأخبره، قال: ما أرى ذلك، قال: ولِمَ؟ قال: لأن هذا ما لا يخفى، ولا آمن إذا علم الجند أن يتعلّقوا بمحمله، ويقولوا: لا نُخلّيه حتى نُعطَى لثلاث سنين وأكثر، ويتحكّموا ويشتطّوا، ولكن أرى أن يُوارى ـ رحمه الله ـ هاهنا، وتُوجّه نُصيراً إلى أمير المؤمنين الهادي بالخاتم والقضيب والتهنئة والتعزية، فإن البريد إلى نصير، فلا يُنكِر خروجه أحد إذا كان على بريد الناحية، وأن تأمر لمن معك من الجند بجوائز، مائتين مائتين، وتُنادي فيهم بالقفول، فإنهم إن قبضوا الدراهم لم تكن لهم همّة سوى أهليهم وأوطانهم، ولا عرجة على شيءٍ دون بغداد، ففعل هارون ذلك. وقال الجند لما قبضوا الدراهم: بغداد بغداد، يتبادرون إليها، ويبعثون على الخروج من ماسبذان، فلما وافوا بغداد، وعلموا خبر وفاة الخليفة ساروا إلى باب الربيع بن يونس، وطالبوا بالأرزاق، وضجّوا. وقدم هارون بغداد[1].

---

(١) تاريخ الطبري.

وجّه هارون الوفود إلى الأمصار، ونعى إليهم المهديّ، وأخذ بيعتهم لموسى الهادي، وله بولاية العهد من بعده، وضبط أمر بغداد.

وكان نُصير الوصيف شخص من ماسبذان من يومه إلى جرجان بوفاة المهدي والبيعة لموسى الهادي، فلما صار إليه نادى بالرحيل، وخرج من فوره على البريد، وأسرع السير من جرجان إلى بغداد ـ حين بلغه الخبر ـ فساق منها إليها في عشرين يوماً، فلما شارف مدينة السلام استقبله الناس من أهل بيته وغيرهم. فدخل بغداد، وقام في الناس خطيباً، وأخذ البيعة منهم فبايعوه، وتغيّب الربيع الحاجب فتطلبه الهادي حتى حضر بين يديه، فعفا عنه وأحسن إليه، وأقرّه على حجابته وزاده الوزارة وولايات أُخر، ذلك أن بعض رجال الدولة ومنهم الربيع قد همّوا على تقديم هارون الرشيد عليه والمبايعة له.

ولّى موسى الهادي الربيع بن يونس الوازرة مكان عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى، وضمّ إليه ما كان عمر بن بَزيع يتولّاه من الزمام هذا إضافةً إلى الحجابة التي كانت له من قبل، وولى محمد بن جميل ديوان خراج العِراقَيْن، وولّى عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى خراج

الشام وما يليه، وأقرّ على حرسه علي بن عيسى بن ماهان، وضمّ إليه ديوان الجند، وولّى على شُرَطه عبد الله بن مالك مكان عبد الله بن خازم، وأقرّ الخاتم في يد علي بن يقطين.

كانت موافاة موسى الهادي بغداد عند منصرفه من جرجان لعشرٍ بقين من صفر من سنة ١٦٩هـ. فلما قدمها نزل القصر الذي يُسّمى (الخُلْد) فأقام به شهراً، ثم تحوّل إلى بستان أبي جعفر، ثم تحوّل إلى (عيساباذ)، وبعد مدةٍ مات الحاجب الربيع بن يونس.

وقد قال سَلْم الخاسر لما تولّى موسى الهادي الخلافة بعد محمد المهديّ:

لقد فاز موسى بالخلافة والهدى
ومات أمير المؤمنين محمد
فمات الذي غمّ البريّة فقده
وقام الذي يكفيك من يتفقّد

وقال أيضاً:

تخفى الملوك لموسى عند طلعته
مثل النجوم لقرن الشمس إذا طلعا
وليس خَلْقٌ يرى بدراً وطلعته
من البريّة إلا ذلّ أو خضعا

وقال أيضاً:

لولا الخليفة موسى بعد والده
ما كان للناس من مهديّهم خلف
ألا ترى أمّة الأميّ واردةً
كأنّها من نواحي البحر تغترف
من راحتيْ ملكٍ قد عمّ نائله
كأنّ نائله من جوده سرف

تولّى موسى الهادي الخلافة ولم يُكمل الثانية والعشرين من عمره، ويقال: إنه لم ينل الخلافة أحد قبله في سنّه.

اشتدّ الهادي في طلب الزنادقة فقتل منهم جماعةً، منهم: يزدان بن بازان كاتب يقطين، وعليّ بن يقطين الذي ذُكر عنه أنه حجّ فنظر إلى الناس في الطواف يُهرْوِلون، فقال: ما أُشَبِّههم إلا ببقرٍ تدوس في البيدر. وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى:

أيا أمين الله في خلقه
ووارث الكعبة والمِنبر
ماذا ترى في رجلٍ كافرٍ
يُشَبِّهُ الكعبة بالبيدر

ويـجـعـل الـنـاس إذا مـا سـعـوا
حُـمْـراً تـدوس الـبُـرَّ والـدوسـر

فقتله موسى الهادي ثم صلبه[1].

ثورة الحسين بن علي بن الحسن[2]:

كان أمير المدينة عندما تسلّم موسى الهادي

---

(١) كان الخاتم بيد علي بن يقطين، وهذا يدل على أن عدداً ممن يتظاهر بالإسلام ويتقرّب من المسؤولين وينال مراكز حسّاسة ومناصب عاليةً وما هو من المسلمين، ولا يحمل من الإسلام سوى الاسم، ويعمل في الخفاء بالهدم من الداخل.

(٢) الحسين بن علي بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب: كان الحسين بن علي بن الحسن ببغداد لما تُوفي محمد المهدي، وكان نازلاً في دار محمد بن إبراهيم، وقدم موسى الهادي من جرجان، فدعاه إليه، فزاره ثم أذن له بالانصراف، فانصرف ولم يأمر له بدرهم واحدٍ. على حين أنه كان قد دخل مرةً على المهدي في خلافته فأطلق له أربعين ألف دينارٍ، ففرّقها في أهله وأصدقائه من أهل بغداد والكوفة، ثم خرج من الكوفة وما عليه قميص، إنما كان عليه فروة وليس تحتها قميص، إذْ كان كريماً من أجود الناس.
كما أن الحسين بن علي بن الحسن قد تزوّج رقية بنت عمرو العثمانية بعد وفاة زوجها محمد المهدي وانقضاء عدّتها.
ولما غادر الحسين بغداد أيام موسى الهادي قصد الكوفة فجاءه المتلوّنون فيها وأثاروه وحرّضوه، وافتروا على موسى الهادي، وبايعوه، ووعدوه الموسم للوثوب بأهل مكة، وكتبوا بذلك إلى إخوانهم في خراسان والجبل. =

الخلافة هو إسحاق بن عيسى بن عليّ، فلما مات المهدي واستخلف موسى الهادي شخص إسحاق وافداً إلى العراق، واستخلف على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وقيل: إن إسحاق بن عيسى بن علي استعفى الهادي وهو على المدينة، واستأذنه في الشخوص إلى بغداد، فأعفاه، وولى مكانه عمر بن عبد العزيز بن عبد الله. ووقع بين عمر أمير المدينة وبين الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب خلاف حول أشخاص وقعوا بمخالفاتٍ فعاقبهم عمر وشهّر بهم فرأى الحسين ويحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن عمر قد جار في حكمهم وتجاوز بالتشهير بهم فكفلاهم، فتغيب أحدهم مرةً وهو الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فزاد الخلاف بين عمر والحسين.

= وعاد الحسين إلى المدينة، وجرى الخلاف مع أميرها، فخرج الحسين بثلاثمائةٍ من أصحابه وأهل بيته فقصد مكة، وتبعه ناس من الأعراب من جهينة، ومزينة، وغِفار، وضمرة وغيرهم، ونزل بـ (فخ) في شهر ذي القعدة سنة ١٦٩هـ.
وموقع فخّ اليوم مُسمّى بـ (الشهداء) أو الزاهر.

تواعد الحسين بن عليّ بن الحسن ويحيى بن عبد الله بن الحسن[1] أن يخرجوا ويخلعوا طاعة موسى الهادي بِمِنى أو بمكة بالموسم. وبدأ العمل بالمدينة

---

(١) يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: من كبار الطالبيين في أيام موسى الهادي وهارون الرشيد. ربّاه جعفر الصادق في المدينة، فروى الحديث وتفقّه، كان مع ابن عمه الحسين بن عليّ بن الحسن في ثورته بالمدينة وحضر مقتله في معركة فخ سنة ١٦٩هـ، ونجا هو فدعا إلى نفسه، فبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر. وذهب إلى اليمن فأقام مدةً، ودخل مصر والمغرب، وعاد إلى المشرق فدخل العراق مُتنكّراً، وقصد بلاد الريّ وخراسان فوصل إلى ما وراء النهر فاشتدّ الرشيد في طلبه، فانصرف إلى خاقان ملك الترك ومعه ما يقرب من ١٧٠ رجلاً من أعوانه، فأقام سنتين وستة أشهرٍ، وخرج إلى طبرستان، فبلاد الديلم، وأعلن بها دعوته سنة ١٧٥هـ، فكثر جمعه، فندب الرشيد لحربه الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي في خمسين ألفاً، وضعف أمر يحيى، وخاف أن يغدر به ملك الديلم، فطلب الأمان من الرشيد، فأجابه بخطه، واستقدمه إلى بغداد، فدخلها، وأغدق عليه الرشيد عطاياه، إلى أن بلغه أنه يدعو لنفسه سراً، وأنه ما زال عنده من يقوم بدعوته، فحبسه عند الفضل بن يحيى البرمكي، فرقّ له الفضل بعد مدةٍ، فأطلقه، وعلم الرشيد، فكان ذلك مما أحفظه على البرامكة، وأرسل من أعاد يحيى إلى الاعتقال، فسجنه في سرداب وأوكل به مسروراً السيّاف، وكان كثيراً ما يدعو به إليه فيناظره، وبقي إلى أن مات في سجنه سنة ١٨٠هـ.

حيث بايع الحسين بن علي بن الحسن عدد ممن قدم من الكوفة للتحريض، فحملوا على الخليفة موسى الهادي على ما كان عليه من صغرٍ في سنّه وتصرّفاتٍ نسبوها له.

خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن في آخر الليل مع جماعةٍ من أعوانه حتى ضرب دار مروان[1] على عمر بن عبد العزيز بن عبد الله، فلم يجده فيها، فجاء إلى منزله فلم يجده أيضاً فيها، وتوارى منهم إذ لم يكن مستعداً لمواجهتهم، فجاءوا حتى اقتحموا المسجد حين أُذّن بالصبح، فجلس الحسين بن علي بن الحسن على المنبر وعليه عمامة بيضاء، وجعل الناس يأتون المسجد، فإذا رأوهم رجعوا ولا يصلّون، فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه، ويبايعونه على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، للمرتضى من آل محمدٍ.

أقبل خالد البربري، وهو يومئذٍ على الصوافي بالمدينة قائد على مائتين من الجند مقيمين بالمدينة، وأقبل فيمن معه، وجاء أمير المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله، والتقى الجمع بجمع الحسين بن علي بن الحسن، وجرى صدام قتل فيه خالد البربري قتله

---

(١) دار مروان: مقر الإمارة.

يحيى بن عبد الله وإدريس بن عبد الله[1]، ثم حملوا على أصحابه فانهزموا. ثم رجع القتال بين الفريقين، وهرب عمر بن عبد العزيز بن عبد الله من المدينة.

بقي الحسين بن علي بن الحسن في المدينة يتجهّز وأصحابه، وبعد أحد عشر يوماً ارتحل يوم أربعةٍ وعشرين لستٍّ بقين من ذي القعدة سنة ١٦٩هـ، واتجه نحو مكة.

انتهى خبر الحسين إلى الخليفة موسى الهادي، وقد كان حجّ في تلك السنة رجال من أهل بيت الخليفة منهم: محمد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمد بن عليّ، وموسى بن عيسى بن علي، سوى من حجّ من الأحداث. وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر،

(١) إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب: مؤسس دولة الأدارسة في المغرب سنة ١٧٢هـ، وإليه نسبتها، أول ما عُرف عنه أنه كان مع ابن عمه الحسين بن علي بن الحسن في المدينة أيام ثورته في المدينة سنة ١٦٩ وشهد معه معركة فخ، فقتل الحسين فانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ، ونزل بمدينة (وليلة) على مقربةٍ من مدينة مكناس وهي اليوم مدينة قصر فرعون، وكان كبيرها يومئذٍ إسحاق بن محمد فعرّفه إدريس بنفسه، فأجاره وأكرمه، ثم جمع البربر على القيام بدعوته، وخلع طاعة بني العباس، فتم له الأمر (يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٧٢هـ)، وأخذ بالتوسع، وتوفي في (وليلة) سنة ١٧٧هـ.

فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمد بن سليمان على الحرب، فقيل له: عمّك العباس بن محمد، قال: دعوني، لا والله لا أخدَع عن ملكي، فنفذ الكتاب بولاية محمد بن سليمان بن علي على الحرب، فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج.

وكان محمد بن سليمان قد خرج في عدّةٍ من السلاح والرجال، وذلك لأن الطريق كان مخوفاً معوِراً من الأعراب، وتجمّع أتباع العباسيين ودخلوا مكة مُحرمين بعمرةٍ فطافوا وسعوا، وأحلّوا من عمرتهم، ثم مضوا فأتوا ذا طوى وجرى القتال، وقُتل الحسين بن علي بن الحسن، وانهزمت جماعته واختلطوا بالحجاج، ونودي بالأمان، ولم يحضر أمير الموسم سليمان بن جعفر القتال إذ كان مريضاً.

دخل محمد بن سليمان مكة من طريق والعباس بن محمد من طريق وذلك يوم التروية، وأُخذت أخت الحسين بن علي بن الحسن وكانت معه، وصُيّرت عند زينب بنت سليمان بن علي، وكان قد قُتل الحسن بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله، ونجا يحيى بن عبد الله بن الحسن وأخوه إدريس بن عبد الله بن الحسن. وعُرفت المعركة التي دارت بين الفريقين بـ(معركة فخ) باسم المكان الذي جرت فيه.

القتال مع الروم

طمع الروم بالمسلمين إذ رأوا الخليفة صغير السن في نظرهم، فأقبل الروم باتجاه ديار المسلمين ومعهم البطريق فوصلوا إلى ثغر (الحَدَث)[1] فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق، فدخلها العدو، وغزا الصائفة في هذه السنة معيوف بن يحيى من درب الراهب فدخل أرض العدو، وبلغ مدينة (أشنة) فأصاب غنائم، وأسارى، وسبياً.

---

(١) الحَدث: قلعة حصينة بين ملاطية وسُمَيساط ومرعش من الثغور، تقع إلى الشمال من حلب وعلى بعد ٢٥٠ كيلومتراً منها، ويقال لها الحمراء لأن تربتها حمراء، وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب، وكان حصن الحَدَث مما فُتح في أيام عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فتحه حبيب بن مسلمة الفهري، من قبل عياض بن غنْم، وكان معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، يتعاهده بعد ذلك، وكان بنو أمية يُسمّون درب الحدث (درب السلامة) من باب التفاؤل.

ولاة موسى الهادي

كان ولاة موسى الهادي في هذه السنة التي تولّى فيها الخلافة، وهي سنة ١٦٩هـ، كما يلي: عبيد الله بن قثم: يتولّى أمر مكة المكرمة مع الطائف.

عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: يتولّى أمر المدينة.

إبراهيم بن سَلْم بن قتيبة: والي اليمن.

سويد بن أبي سويد الخراساني: والي اليمامة والبحرين.

الحسن بن تسنيم الحواريّ: والي عُمان.

موسى بن عيسى: والي الكوفة.

محمد بن سليمان: والي البصرة، وعلى القضاء عمر بن عثمان.

الحجّاج مولى الهادي: والي جرجان.

طيفور مولى الهادي: والي أصبهان.

زياد بن حسان: والي قومس.

صالح بن شيخ بن عميرة الأسدي: والي طبرستان والرُّويان.

الفصل الثالث

شخصية موسى الهادي

• كان موسى الهادي فصيحاً قادراً على الكلام، أديباً، تعلوه هيبة، وله سطوة وشهامة. وكان يُسمّى «موسى أَطْبِقْ» لأن شفته العليا كانت تتقلّص، فكان أبوه وَكّل به في صغره خادماً كلما رآه مفتوح الفم قال: موصى أَطْبِقْ، فيفيق على نفسه، ويضمّ شفتيه، فَشُهِر بذلك، ولم يكن يُقيم أبهةً للخلافة.

• كان موسى الهادي حسناً جميلاً طويلاً، أبيض، وكان قوي البأس يثب على الدابة وعليه درعان، وكان أبوه يُسمّيه «ريحانتي».

• كان شهماً خبيراً بالملك كريماً، ومن كلامه: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلّات، ليقلّ الطمع عن الملك.

• غضب يوماً على رجل فاستُرضي عنه فرضي،

فشرع الرجل يعتذر، فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤونة الاعتذار.

• عزّى رجلاً في ولده فقال له: سرّك وهو عدوّ وفتنة، وساءك وهو صلاة ورحمة.

• أنشد مروان بن أبي حفصة موسى الهادي قصيدةً له، منها قوله:

تشابه يوم بأسه ونواله
فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي: أيما أحبّ إليك؟ ثلاثون ألفاً مُعجّلةً أم ألف تدور في الدواوين؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أو أحسن من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: تكون ألفاً مُعَجَّلة ومائة ألفٍ تدور بالدواوين، فقال الهادي: أو أحسن من ذلك؟ نُعجّل الجميع لك. فأمر له بمائةٍ وثلاثين ألفاً معجّلة.

• كان موسى الهادي من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه لما يعلوه من المهابة والرياسة، وكان شاباً حسناً وقوراً مهيباً.

• قال الطلب بن عكاشة المزني: قدمنا على أبي

محمد الهادي شهوداً على رجلٍ منا، أنه شتم قريشاً وتخطّى إلى رسول الله ﷺ، فجلس لنا مجلساً أحضر فيه فقهاء أهل زمانه، ومن كان بالحضرة على بابه، وأحضر الرجل وأحضرنا فشهدنا عليه بما سمعنا منه، فتغيّر وجه الهادي، ثم نكس رأسه، ثم رفعه، ثم قال: سمعت أبي المهدي يحدّث عن أبيه المنصور عن أبيه محمد عن أبيه علي بن عبد الله بن عباس قال: من أهان قريشاً أهانه الله، وأنت يا عدوّ الله لم ترض بأن آذيت قريشاً حتى تخطّيت إلى رسول الله ﷺ؟ اضربوا عنقه، فما برحنا حتى قُتل[1].

• كان جبّاراً، وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة، والأعمدة، والقِسيّ الموترة، فأتبعه عماله به في ذلك، وكثر السلاح في عصره.

• ومن شعر الهادي في أخيه هارون لما امتنع من خلع نفسه.

نصحت لهارون فردّ نصيحتي
وكل امرئ لا يقبل النصح نادم
وأدعوه للأمر المؤلّف بيننا
فيبعد عنه، وهو في ذاك ظالم

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير.

ولولا انتظاري منه يوماً إلى غد

لعاد إلى ما قلته وهو راغم

• وأسند الصولي عن سعيد بن سلم، قال: إني لأرجو أن يغفر الله للهادي بشيءٍ رأيته منه: حضرته يوماً وأبو الخطاب السعدي ينشده قصيدةً في مدحه، إلى أن قال:

يا خير من عقدت كفّاه حُجْزَتَهُ

وخير من قلّدته أمرها مضر

فقال له الهادي: إلا من ويلك؟ قال سعيد: ولم يكن استثنى في شعره، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما يعني من أهل هذا الزمان، ففكّر الشاعر فقال:

إلا النبيّ رسول الله، إنَّ له

فضلاً وأنت بذاك الفضل تفتخر

فقال: الآن أصبت وأحسنت، وأمر له بخمسين ألف درهمٍ.

• كان نقش خاتمه «الله ثقة موسى وبه يؤمن».

• ذكر أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي، أن عليّ بن صالح حدّثه، أنه كان يوماً على رأس الهادي وهو غلام ـ وقد كان جفا المظالم

عامّةً ثلاثة أيامٍ ـ فدخل عليه الحرّاني، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيامٍ، فالتفت إليّ وقال: يا عليّ ائذن للناس، عليّ بالجَفلَى لا بالنَّقَرى، فخرجت من عنده أطير على وجهي، ثم وقفت لا أدري ما قال لي، فقلت: أُراجع أمير المؤمنين، فيقول: أتحجبني ولا تعلم كلامي، ثم أدركني ذهني، فبعثت إلى أعرابي كان قد وفد، فسألته عن الجَفَلى والنَّقَرى، فقال: الجَفَلى جُفالة، والنَّقَرى يُنَقِّر خواصهم[1]. فأمرت بالستور فرُفِعت وبالأبواب ففُتِحت، فدخل الناس على بكرة أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوّض المجلس مثلت بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا عليّ، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كلّمتني بكلامٍ لم أسمعه قبل يومي هذا، وخفت مراجعتك، فتقول: أتحجبني وأنت لم تعلم كلامي، فبعثت إلى أعرابي كان عندنا، ففسَّر لي الكلام، فكافئه عني يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهمٍ تُحمل إليه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إنه أعرابي جلف، وفي

(١) يقال: دعاهم الجفلى، أي دعاهم بجماعتهم، والنقري: الدعوة الخاصة، والجفالة: الجماعة من الناس.

عشرة آلاف درهمٍ ما أغناه وكفاه، فقال: ويلك يا عليّ أجودُ وتبخل.

• قال عليّ بن صالح: ركب الهادي يوماً يريد عيادة أمه الخيزران من علّةٍ كانت وجدتها، فاعترضه عمر بن بزيع، فقال له: يا أمير المؤمنين، هل أدلّك على وجهٍ هو أعود عليك من هذا؟ فقال: وما هو يا عمر؟ قال: المظالم لم تنظر فيها منذ ثلاثٍ، قال: فأومأ إلى المطرّقة أن يميلوا إلى دار المظالم، ثم بعث إلى الخيزران بخادمٍ من خدمه يعتذر إليها من تخلّفه، وقال: قل لها إن عمر بن بزيع أخبرنا من حق الله بما هو أجوب علينا من حقك، فملنا إليه، ونحن عائدون إليك في غدٍ إن شاء الله.

• كان الهادي قد استخلف على حجابته بعد الربيع ابنَه الفضل، فقال له: لا تحجب عني الناس، فإن ذلك يزيل عني البركة، ولا تُلقِ إليَّ أمراً إذا كشفته أصبته باطلاً، فإن ذلك يوقع الملك، ويضرّ بالرعيّة.

• قال موسى بن عبد الله: أُتي موسى برجلٍ، فجعل يُقرّعه بذنوبه ويتهدّده، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، اعتذاري مما تُقرّعني به ردّ عليك، وإقراري يوجب عليّ ذنباً، ولكني أقول:

فإن كنت ترجو في العقوبة رحمةً
فلا تَزْهَدَنْ عند المعافاة في الأجر

قال: فأمر بإطلاقه.

• ذكر الهيثم بن عروة الأنصاري أن الحسين بن معاذ بن مسلم ـ وكان رضيع موسى الهادي ـ قال: لقد رأيتني أخلو مع موسى، فلا أجد له هيبةً في قلبي عند الخلوة، لما كان يبسطني، وربما صارعني فأصرعه غير هائبٍ له، وأضرب به الأرض، فإذا تلبّس لبسة الخلافة، ثم جلس مجلس الأمر والنهي قمت على رأسه، فوالله ما أملك نفسي من الرعدة والهيبةَ له.

• ذكر يحيى بن الحسن بن عبد الخالق أن محمد بن سعيد بن عمر بن مهران، حدّثه عن أبيه، عن جده، قال: كانت المرتبة لإبراهيم بن سلْم بن قتيبة عند الهادي، فمات ابن لإبراهيم يقال له سلْم، فأتاه موسى الهادي يُعزّيه عنه على حمارٍ أشهب، ولا يُمنع مُقبل ولا يُردّ عنه مُسلِّم، حتى نزل في رِواقه، فقال له: يا إبراهيم، سرّك وهو عدوّ وفتنة[1]، وحَزَنَك وهو صلاة

(١) من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ=

ورحمة. فقال: يا أمير المؤمنين، ما بقي منه جزء كان فيه حزن إلا وقد امتلأ عزاءً. قال: فلما مات إبراهيم صارت المرتبة لسعيد بن سلْم بعده.



= فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

الفصل الرابع

ولاية العهد ووفاة موسى الهادي

ولاية العهد:

كان ولي عهد موسى الهادي أخوه هارون الرشيد غير أن موسى لم تكد تمض سنة على خلافته حتى رغب في خلع أخيه من ولاية العهد، وجعلها لابنه جعفر، وهو صغير لم يبلغ الحلم بعد.

كان موسى الهادي لما أفضت إليه الخلافة قد أقرّ يحيى بن خالد البرمكي على ما كان يلي هارون من عمل المغرب، فكان يحيى بن خالد يقوم بإنزال هارون الرشيد ولا يفارقه هو وولده.

لما أراد موسى الهادي خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر بن موسى تابعه على ذلك القادة منهم: يزيد بن مزيد، وعبد الله بن مالك، وعلي بن عيسى وأمثالهم، فخلعوا هارون وبايعوا

لجعفر، ودسّوا إلى أعوانهم، فتكلموا في أمره وتنقّصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وصعب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألا يُسارَ قدّام الرشيد بحربةٍ، فاجتنبه الناس وتركوه، فلم يكن أحد يجترئ أن يُسلّم عليه ولا يقربه.

وسُعي إلى الهادي بيحيى بن خالد، وقيل له: إنه ليس عليك من هارون خلاف، وإنما يفسده يحيى بن خالد، فابعث إلى يحيى، وتهدَّده بالقتل، وارمه بالكفر، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى بن خالد.

وذكر أبو حفص الكرماني أن محمد بن يحيى بن خالد البرمكي حدّثه، قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلاً، فأيس من نفسه، وودّع أهله، وتحنّط وجدّد ثيابه، ولم يشكّ أنه يقتله، فلما أُدخل عليه، قال: يا يحيى ما لي ولك! قال: أنا عبدك يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعته. قال: فلِمَ تدخل بيني وبين أخي وتُفسده عليّ، قال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما! إنما صيّرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيت إلى أمرك، قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً، ولا ذلك فيه ولا عنده. قال: فسكن

غضبه. وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع، فقال له يحيى: لا تفعل.

قال الهادي يوماً للربيع: لا يدخل عليّ يحيى بن خالد إلا آخر الناس، قال: فبعث إليه الربيع، وتفرّغ له، قال: فلما جلس من غدٍ أذن حتى لم يبق أحد، ودخل عليه يحيى، وعنده عبد الصمد بن عليّ والعباس بن محمد وجلّة أهله وقواده، فما زال يُدنيه حتى أجلسه بين يديه، وقال له: إني كنت أظلمك وأكفّرك، فاجعلني في حلٍّ، فتعجّب الناس من إكرامه إياه وقوله، فقبّل يحيى يده وشكر له، فقال له الهادي: من الذي يقول فيك يا يحيى:

لو يمسّ البخيل راحة يحيى
لسخت نفسه ببذل النوال

قال: تلك راحتك يا أمير المؤمنين لا راحة عبدك.

قال: وقال يحيى للهادي في خلع الرشيد لما كلّمه فيه: يا أمير المؤمنين، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد

لبيعته، فقال: صدقت ونصحت، ولي في هذا تدبير.

أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع إليه يحيى رقعةً: إن عندي نصيحة، فدعا به، فقال: يا أمير المؤمنين، أخلني فأخلاه، فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمر ـ أسأل الله ألا نبلغه، وأن يقدّمنا قبله ـ أتظنّ أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر، وهو لم يبلغ الحلم، ويرضون به لصلاتهم وحجّهم وغزوهم! قال: والله ما أظنّ ذلك، قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليها أهلك وجلّتهم مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم، فتخرج من ولد أبيك؟ فقال: نبّهتني يا يحيى ـ وكان يقول: ما كلّمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى ـ وقال له: لو أن هذا الأمر لم يُعْقَد لأخيك، أما كان ينبغي أن تعقده له، فكيف بأن تحلّه عنه، وقد عقده المهدي له، ولكن أرى أن تُقِرّ هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر، وبلغ الله به، أتيته بالرشيد فخلع نفسه، وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده. قال: فقبل الهادي قوله ورأيه، وأمر بإطلاقه.

ويُذكر أن موسى الهادي جلس بعدما ملك في أول خلافته جلوساً خاصاً، ودعا بإبراهيم بن جعفر بن

أبي جعفر وإبراهيم بن سلْم بن قتيبة والحرّاني، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلم، ويكنى أبا سليمان، وكان يثق به ويقدّمه، فبينا هو كذلك إذ دخل صالح صاحب المصلى، فقال: هارون بن المهدي، فقال: ائذن له، فدخل فسلّم عليه، وقبّل يديه، وجلس عن يمينه بعيداً من ناحيةٍ، فأطرق موسى ينظر إليه، وأدمن ذلك، ثم التفت إليه، فقال: يا هارون، كأني بك تُحدّث نفسك بتمام الرؤيا، وتُؤمّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرط القتاد، تؤمل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه، وقال: يا موسى، إنك إن تجبّرت وُضعت، وإن تواضعت رُفعت، وإن ظلمت خُتِلت، وإني لأرجو أن يفضي الأمر إليّ فأُنصفُ من ظلمتَ، وأصل من قطعت، وأصيّر أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي. فقال له موسى: ذلك الظنّ بك يا أبا جعفر، ادنُ مني، فدنا منه، فقبّل يديه، ثم ذهب ليعود إلى مجلسه، فقال له: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل ـ أعني أباك المنصور ـ لا جلست إلا معي، وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرّاني، احمل إلى أخي ألف ألف دينارٍ، وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف منه، واعرض عليه ما في الخزائن

من مالنا، وما أُخذ من أهل الذمّة، فيأخذ منه جميع ما أراد. ففعل ذلك. ولما قام قال لصالح: ادنِ دابته من البساط. قال عمرو الرومي: وكان هارون يأنس بي، فقمت إليه فقلت: يا سيدي ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين؟ قال: قال المهدي: أُريت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً، فأما هارون فأورق قضيبه من أوله إلى آخره، فدعا المهدي الحكمَ بن موسى الضمريّ - وكان يكنى أبا سفيان - فقال له: عبّر هذه الرؤيا، فقال: يملكان جميعاً، فأما موسى فتقلّ أيامه، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفةً، وتكون أيامه أحسن أيامٍ، ودهره أحسن دهرٍ. قال: ولم يلبث إلّا أياماً يسيرةً، ثم اعتلّ موسى ومات، وكانت علّته ثلاثة أيامٍ.

قال عمرو الروميّ: أفضت الخلافة إلى هارون فزوّج ابنته أم محمد من جعفر بن موسى، وفاطمة من إسماعيل بن موسى، ووفّى بكل ما قال، وكان دهره أحسن الدهور[١].

وفاة موسى الهادي:

توفي الهادي ليلة الجمعة للنصف من شهر ربيع

(١) تاريخ الطبري.

الأول سنة ١٧٠هـ وعمره أربع وعشرون سنةً، وتولّى الخلافة مدة سنةٍ وشهرين، وكانت وفاته في بستانه بعيساباذ. وكنيته أبو محمد، وأمه أم ولد بربرية هي الخيزران. ودُفن بعيساباذ. وصلى عليه أخوه هارون.

واختلف في سبب وفاته، فقيل: إنه دفع نديماً له من جرفٍ على أصول قصبٍ قد قُطع، فتعلّق النديم به فوقع، فدخلت قصبة في منخره فماتا جميعاً.

وقيل: أصابته قرحة في جوفه فمات.

وقيل: سمته أمه الخيزران لما عزم على قتل أخيه الرشيد ليعهد إلى ولده. وقيل: كانت أُمّه حاكمةً مستبدةً بالأمور الكبار، وكانت المواكب تغدو على بابها، فزجرهم عن ذلك، وكلَّمها بكلامٍ وقحٍ، وقال: لئن وقف ببابك أمير لأضربنّ عنقه، أما لك مغزل يُشغلك، أو مصحف يُذكّرك؟ فقامت ما تعقل من الغضب، وقيل: إنه بعث إليها بطعامٍ مسمومٍ، فأطعمت منه كلباً، فانتثر، فعملت على قتله لما وعك بأن غمّوا وجهه ببساطٍ جلسوا على جوانبه فمات مختنقاً[1].

---

(١) تاريخ الخلفاء.

وقيل: كانت وفاته من قبل جوارٍ لأمه الخيزران كانت أمرتهنّ بقتله لأسبابٍ.

ذكر يحيى بن الحسن أن الهادي نابذ أُمّه ونافرها، لما صارت إليه الخلافة، فصارت خالصةُ إليه يوماً، فقالت: إن أمك تستكسيك، فأمر لها بخِزانةٍ مملوءة كِسوةً، قال: ووجد للخيزران في منزلها من قراقر الوشي ثمانية عشر ألف قرقر[1]. قال: وكانت الخيزران في أول خلافة موسى تفتات[2] عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة[3] التبذّل، فإنه ليس من قَدْر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتّلك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك، قال: وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيراً ما تكلّمه في الحوائج، فكان يُجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهرٍ من خلافته، وانثال[4] الناس عليها، وطمعوا فيها

(١) القرقر: من لباس المرأة.
(٢) تفتات: تتدخل في شؤونه دون رأيه.
(٣) البذاذة: الهيئة. رثاثة الهيئة.
(٤) انثال: انصبّ.

فكانت المواكب تغدو إلى بابها، قال: فَكَلَّمَتْهُ يوماً في أمرٍ لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، فاعتلّ بعلَّةٍ، فقالت: لا بدّ من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: فإني تضمّنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. قال: فغضب موسى، وقال: ويل على ابن الفاعلة، قد علمت أنه صاحبها، والله لا أقضيها لك، قالت: إذن والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذن والله لا أبالي، وحمي وغضب. فقامت مغضبةً، فقال: مكانك تستوعي كلامي والله، وإلا فأنا نفيّ من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربنّ عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم، أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يُذكّرك، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك، ما فتحت بابك لمليّ أو لذميّ. فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوةٍ ولا مُرَّةٍ بعدها.

قال يحيى بن الحسن: حدّثني أبي، قال: سمعت خالصة تقول للعباس بن الفضل بن الربيع: بعث موسى إلى أمه الخيرزان بأرزّةٍ، وقال: استطبتها فأكلت منها، فكُلي منها. قالت خالصة: فقلت لها: أمسكي حتى

تنظري، فإني أخاف أن يكون فيها شيء تكرهينه، فجاءوا بكلبٍ فأكل منها، فتساقط لحمه، فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيت الأرزّة؟ فقالت: وجدتها طيِّبةً، فقال: لم تأكلي، ولو أكلت لكنتُ قد استرحت منك، متى أُفلح خليفة له أمّ!

قال يحيى بن الحسن: حدّثني بعض الهاشميين، أن سبب موت الهادي كان أنه لما جدّ في خلع هارون والبيعة لابنه جعفر، وخافت الخيزران على هارون منه، دسّت إليه جواريها لما مرض من قتله بالغمّ والجلوس على وجهه، ووجّهت إلى يحيى بن خالد: إن الرجل قد توفي، فاجْدُد في أمرك ولا تُقصّر.

وذكر محمد بن عبد الرحمٰن بن بشار أن الفضل بن سعيد حدّثه، عن أبيه، قال: كان يتصل بموسى وصول القواد إلى أمه الخيزران، يؤمّلون بكلامها في قضاء حوائجهم عندها، قال: وكانت تريد أن تغلب على أمره كما غلبت على أمر المهدي، فكان يمنعها من ذلك ويقول: ما للنساء والكلام في أمر الرجال! فلما كثر عليه مصير من يصير إليها من قواده، قال يوماً وقد جمعهم: أيما خير أنا أو أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأيما خير أمي أو أمهاتكم؟ قالوا: بل

أمك يا أمير المؤمنين، قال: فأيّكم يحبّ أن يتحدّث الرجال بخبر أمه، فيقولون: فعلت أُمّ فلان، وصنعت أُمّ فلان، وقالت أُمّ فلان؟ قالوا: ما أحد يحبّ منا ذلك، قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدّثون بحديثها! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشقّ ذلك عليها فاعتزلته، وحلفت ألا تكلّمه، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة[1].



(١) تاريخ الطبري.

أسرة موسى الهادي

تزوّج موسى الهادي ابنة خاله عبيدة بنت الغطريف، ولم تُنجب له.

كان لموسى الهادي سبعة ذكور وابنتان، وأمهاتهم جميعاً أمهات ولد.

١ ـ جعفر: وهو الذي كان يُرشّحه للخلافة. وتزوّج ابنة عمّه أم محمد بنت هارون الرشيد.

٢ ـ العباس.

٣ ـ عبد الله.

٤ ـ إسحاق.

٥ ـ إسماعيل. وتزوج ابنة عمّه فاطمة بنت هارون الرشيد.

٦ ـ موسى. وكان أعمى.

٧ ـ سليمان.

أما البنات فهما.

١ ـ أم موسى: وتزوّجها ابن عمها عبد الله المأمون بن هارون الرشيد.

٢ ـ أم العباس: وتُلقّب «نُوتة».

المُحتوى

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني
موسى الهادي

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

مؤلفات عبد الله/محمود شاكر

مواطن الشعوب الإسلامية

أ ـ في آسيا:

١ ـ تركستان الغربية.
٢ ـ تركستان الشرقية.
٣ ـ قفقاسيا.
٤ ـ باكستان.
٥ ـ أندونيسيا.
٦ ـ اتحاد ماليزيا.
٧ ـ فطاني.
٨ ـ المسلمون في قبرص.
٩ ـ المسلمون في الفيليبين.
١٠ ـ جزر المالديف.
١١ ـ أفغانستان.
١٢ ـ تركيا.
١٣ ـ إيران.
١٤ ـ شبه جزيرة العرب.
أ ـ عسير.
ب ـ نجد.
ج ـ الحجاز.
د ـ البحرين.
١٥ ـ المسلمون في الهند الصينية.

ب ـ في إفريقية:

١ ـ غينيا.
٢ ـ نيجيريا.
٣ ـ الصومال.
٤ ـ موريتانيا.
٥ ـ أرتيريا والحبشة.
٦ ـ تشاد.
٧ ـ تانزانيا.
٨ ـ السنغال.
٩ ـ أوغندة.
١٠ ـ ليبيا.
١١ ـ السودان.
١٢ ـ جزر القُمُر
١٣ ـ المسلمون في بورندي.
١٤ ـ مالي.
١٥ ـ سيراليون.

بناة دولة الإسلام

المجموعة الأولى:

١ ـ أبو سبرة بن أبي رهم.
٢ ـ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي
٣ ـ عبد الله بن جحش.
٤ ـ الزبير بن العوام.
٥ ـ زهير بن أبي أمية.
٦ ـ سهيل بن عمرو.
٧ ـ سعد بن معاذ.
٨ ـ عباد بن بشر.
٩ ـ محمد بن مسلمة.
١٠ ـ أسيد بن الحضير.

المجموعة الثانية:

١١ ـ الفضل بن العباس.
١٢ ـ جعفر بن أبي طالب.
١٣ ـ عبد الله بن الزبير.
١٤ ـ عبد الله بن حذافة.
١٥ ـ المقداد بن عمرو.
١٦ ـ عقيل بن أبي طالب.
١٧ ـ صخر بن حرب.
١٨ ـ زيد بن حارثة.
١٩ ـ أبو العاص بن الربيع.
٢٠ ـ ثابت بن قيس.

المجموعة الثالثة:

٢١ ـ العباس بن عبد المطلب.
٢٢ ـ سعد بن الربيع.
٢٣ ـ عبادة بن الصامت.
٢٤ ـ عبد الله بن رواحة.
٢٥ ـ أبو حذيفة بن عتبة.
٢٦ ـ سالم مولى أبي حذيفة.
٢٧ ـ أبو عبيدة بن الجراح.
٢٨ ـ سعيد بن زيد.
٢٩ ـ سعد بن عبادة.
٣٠ ـ قيس بن سعد.

المجموع الرابعة:

٣١ ـ مصعب بن عمير.
٣٢ ـ كعب بن مالك.
٣٣ ـ أبو أيوب الأنصاري.
٣٤ ـ سعد بن أبي وقاص.
٣٥ ـ حمزة بن عبد المطلب.
٣٦ ـ عاصم بن ثابت.
٣٧ ـ عبدالله بن عبدالله بن أُبي.
٣٨ ـ طلحة بن عبيد الله.
٣٩ ـ أبو طلحة زيد بن سهل.
٤٠ ـ أبو دجانة سماك بن خرشة.

المجموعة الخامسة:

٤١ ـ عمرو بن العاص.
٤٢ ـ عكرمة بن عمرو بن هشام.
٤٣ ـ شرحبيل بن حسنة.
٤٤ ـ أبو موسى الأشعري.
٤٥ ـ عياض بن غنم.
٤٦ ـ جرير بن عبد الله البجلي.
٤٧ ـ المثنى بن حارثة الشيباني.
٤٨ ـ خالد بن الوليد المخزومي.
٤٩ ـ عدي بن حاتم الطائي.
٥٠ ـ ثمامة بن أثال.

المجموعة السادسة:

٥١ ـ خباب بن الأرت.
٥٢ ـ صهيب بن سنان.
٥٣ ـ بلال بن رباح.
٥٤ ـ عمار بن ياسر.
٥٥ ـ عامر بن فهيرة.
٥٦ ـ مرثد بن أبي مرثد.
٥٧ ـ سلمان الفارسي.
٥٨ ـ أبو ذر الغفاري.
٥٩ ـ عبد الله بن مسعود.
٦٠ ـ عبد الرحمن بن عوف.

المجموعة السابعة:

٦١ ـ أنس بن مالك.
٦٢ ـ البراء بن مالك.
٦٣ ـ جابر بن عبد الله.
٦٤ ـ الطفيل بن عمرو الدوسي.
٦٥ ـ أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر
٦٦ ـ أبو أمامة أسعد بن زرارة.
٦٧ ـ عتبة بن غزوان.
٦٨ ـ معاذ بن جبل.
٦٩ ـ زيد بن ثابت.
٧٠ ـ أبيّ بن كعب.